الأعمال الفكرية

مكتبة ٢٠٠٠ الأسرة

مهرجان القراءة للجميع

عشر سنوات 2000

د. رفعت السعيد

مصر ..



التنوير عبر ثقب إبرة



الهيئة المصرية العامة للكتاب

مصـر..
التنوير عبر ثقب إبرة

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى : شارع فى القاهرة (١٩٩٤)

التقنية : ألوان مائية على ورق

مقاس العمل : ٣٠ × ٥ر٤١ سم

محمد الناصر (١٩٥٧)

رسام صحفى، يجيد التعبير عن المواقف الروائية والدرامية، ويستخدم الاسكتشات بأقلام الرصاص والحبر بالإضافة إلى الألوان المائية، ويجيد الرسم على التوال بالألوان الزيتية التى يوظفها عند التعبير عن موران الحركة وشدة الانفعالات.

تخرج فى كلية الفنون الجميلة بالقاهرة عام ١٩٧٤ (تصوير زيتى)، ويشارك فى إقامة المعارض منذ عام ١٩٨٢،.. عمل رساماً ومخرجاً فنياً بمجلة أكتوبر، ثم مجلة نصف الدنيا.

له مقتنيات فى مصر والعالم العربى والأوروبى.

محمود الهندى

مصـــر..
التنوير عبر ثقب إبرة

- رفـــاعـــة الطهطاوى
- فــــــرح انـطـون
- رفـــيق جــبـــور
- ســـلامـــة مـــوسى
- عـبـدالرحـمن الرافـعى
- مـحـمـود أمين العـالم

د. رفعت السعيد



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الفكرية)

مصر..

التنوير عبر ثقب إبرة

د. رفعت السعيد

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :

د . سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشـــباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

محاولة للتبرير

.. ويبقى دعاة التنوير فى بلادنا ـ وكما كانوا دوما ـ بين شقى الرحى. إن إستدارت طحنتهم، وان توقفت أثقلت على أنفاسهم، فأوقفت نسمات الحياة الطليقة.

يقفون دوما تحت ضغوط من حكام لايتركون لهم سوى هامش رمزى للقول والفعل. هامش محسوب، محدد، محدود يكون وجوده رمزاً للادعاء بأن التنوير قائم، والليبرالية مستقرة، ومن متأسلمين يزعمون ويفرضون أنهم وما يقولون، القول الفيصل فيما هو واجب، وما هو مقرر من السماء.

وبين شقى الرحى تذوب الممكنات المريرة للقول التنويرى فيكون محاذراً.. حذراً.. وفى أحيان عديدة مرتجفا.. أو صامتا.. أو متصامت، كاذباً أو متكاذب. يقول الكلمة فيبررها أو يحاول أن يمررها بجيش من الكلمات.. هذا إن نطق.. أما الصمت فهو السبيل الأمثل.. والأعقل.

والحكام يتغيرون، وتتغير احكامهم ومحاكمهم ومحاكماتهم.. لكنهم جميعا يقيمون علاقتهم مع «المثقف» على اساس نموذج مستقر مستمر.. «الخيط والعصفور». ما رأيكم فى هذه التسمية.؟

العصفور هو قدرتنا على التنوير، على القول الانتقادى، على إعمال العقل، على التمرد على السائد والمألوف المستقر إلى حد الموت فى أعمق اعماق وجداننا.. والخيط هو المساحة التى يسمح لنا بالفعل والقول والتنفس فى حدودها.

ينطلق العصفور وساقه.مشدودة إلى الخيط، والخيط مشدود إلى الحاكم.. الحاكم أيا كانت صورته.. قانونا كان ام دستوراً، أم محكمة أم محاكمة، ويتميز حكم عن آخر، وحكومة عن أخرى بمدى قدرة العصفور على الانطلاق.. اى

بمدى المدى الذى يمكن للخيط ان يمتد إليه. ومدى الخيط محكم.. متقن.. مقنن، وان أفلت ولو لوهلة فاليد المتحكمة فى الخيط قادرة على إستعادته، بل وحتى إستعادة العصفور ذاته لتعيده إلى القفص.

والمتأسلمون كالحكام.. يفتحون أمامنا دوماً باب القول شريطه ان نقول مايقولون، ونرتله ترتيلا، وان تباينت النغمات. اما اذا تجاسرنا ولو بقليل من إعمال للعقل، او الفكر او الانتقاد أو التباين، إنهمرت فوق رؤوسنا مطارق التكفير.. والتكفير قتل معنوى، تتلوه وبالحتم محاولات القتل المادى. أليسوا هم أهل الحل والعقد فى الإسلام؟

و.. أليس العقل سلاح محرم استخدامه وكأنه من اسلحة الدمار الشامل؟.

ولقد عانى الناس.. البشر العاديون، وقبلهم بالطبع دعاة التنوير من هول شقى الرحى.. دوما كانوا يعانون، ولم يزالوا.

ولقد عانى «الدين» بمضمونه السماوى المتألق من دعاوى الظلامية.

وعانى الناس بتطلعاتهم نحو الحرية والمستقبل من فعل.. الظلم.

ويتطابق اللفظان لغويا.. «ظلم» الحاكم و«ظلامية» المتأسلمين..

فيتطابق شقى الرحى كما يتطابقان لغويا ظلم.. وظلامية.

ويبقى الصراع بين دعاة التنوير وبين شقى الرحى هو المحور لمعركة الاستنارة طوال آماد ممتدة منذ البدايات الابتدائية على يد أبانا رفاعة الطهطاوى.. وحتى يومنا المرير، والغد الذى نخشى ان يكون أشد مرارة.

ويكون نصيبنا ان حاولنا ان نرفع الظلم عن شعبنا ان ينصب الظلم فوق رؤوسنا، نحاول أن نطلق الحرية من سجنها، فيكون السجن جزاءنا ومحنتنا، فان حاولنا مواجهة الظلامية يكون التكفير سوط عذابنا.

والمعادلة متعادلة فكلما زاد الظلم كلما تمترست الظلامية، فهل يمكن لظلم ان يستقر فى مجتمع يسود فيه العقل وينطلق؟ وهل يمكن لظلامية المتأسلمين

ان تعشش الا فى أعشاش أنظمة حكم ظالمة.

وبمثل هذا التحالف بين الظلم والظلامية تفسد الحياه، بل ويفسد الفهم للدين ألم يكن استاذنا وإمامنا محمد عبده يعرف ذلك ويخشاه.. فيتأوه وهو على فراش الموت:

ولست أبالى ان يُقال محمدُ

أبل، أم إكتظت عليه المآتم

ولكنه دين أردت صلاحه

أحاذر ان تقضى عليه العمائم

وليس من سبيل سوى ان نستجمع أطراف شجاعتنا ـ إن وجدت ـ لنواجه الظلم والظلامية معاً.

●●●

والمثقف المستنير غير المثقف التنويرى.

فكم من مستنير إكتفى بأن يضئ عقله هو.. وخشى ان يحمل ولو قليلا من ضوء لوطنه وشعبه، خشى مصيراً كمصير من حاولوا ذلك. أما التنويرى فهو الذى يعتقد ان إحتفاظ المستنير باستنارته لنفسه، يثرثر بها فى غرفته المغلقة، أو بين خاصته الأخصاء، أو يهوم بها فى كتابات أشبه بالألغاز، ان حاولت فك طلاسمها إحتملت بين يديك أكثر من معنى، فوجدت لنفسها أكثر من مهرب، وفقدت مذاقها وقدرتها على الفعل، واصبحت كالدواء الذى إنتهت مدة صلاحيته تضر ولاتنفع.. يعتقد أن موقفا كهذا جبن وأنانيه.. وان «الحقيقة» كما علمنا شبلى شميل: تقُال.. لا أن تعلم فقط.

«الحقيقة ان تقال لا ان تُعلم» فما قيمه ان تعلم الحقيقة وتعرفها.. دون أن تتجاسر بقولها؟

التنويرى هو ذلك الذى يقول.. او يحاول، يفعل او يحاول، يتحدى

طاغوت الظلم، وطغيان الظلامية او يحاول.. يفعل، يقول، يفعل، يقول حتى لو تندر البعض [مبرراً خذلانه]، أو أبدى إشفاقاً من أنه ينفخ فى وعاء مثقوب.. بل مليئ بالثقوب.

يبقى رغم الاحساس بالحصار، رغم المطاردة، رغم ظلم الظلم الظالم، وظلامية الظلامية المظلمة.. يبقى يكتب.. يقول.. يفعل.. يحتمل.. ليس لأنه مندفع أو متهور وإنما لأنه يراهن على المستقبل.

والفارق هنا ليس فى شجاعة متوافرة أو مفتقدة، وإنما فى قدر المحبة التى يحتفظ بها المثقف سواء لوطنه أو شعبه أو فكرته.

فبقدر الحب يكون العطاء والاحتمال.. الذى دوما ما يكون مريراً.

فليهنأ المستنير الصامت او المتصامت بعيشه الهانئ، الهادئ، غير المتصادم ولكن ليعلم أن بصمته ستبقى على قلب الوطن باهته، وستبقى أبد الدهر ـ هذا ان بقى منها أثر ـ باهته وبلا معنى.

اما هذا الذى يتصادم بفكرة وقوله مع السائد والمألوف والتقليدى والمخالف للعقل والمعقول.. فطوبى له. وإن اشفق عليه البعض أو صب البعض الآخر عليه سهام التكفير واللعنات.. طوبى له، لأنه احب وطنه وشعبه وفكرته حبا دفعه للمجاهرة، التى قادته للتصادم الذى يقتاده دوما إلى طريق الشوك.. المفضى حتما نحو سجنه أو سجن فكرته، مطاردته هو وكتابته، وإلى ما هو أكثر.

●●●

وما بين شقى الرحى يتبقى ثقب باتساع ثقب الأبرة. يضيق حينما يضيق الحاكم والمتأسلمون بأية همسة أو لمسة أو نسمة تنويرية، وقد يتسع فنقول ان الهامش قد تمدد.. لكنه يبقى دوما مجرد ثقب.

والبعض من التنويريين يتقبله بامتنان باعتبار انه كاف كى تمرق منه الكلمات

الممكنة، والممكن المتاح، والبعض يضيق به لكنه لايتحداه، والبعض يحاول تحديه لكنه يبقى فى إطاره حتى بكل ماتبقى له من شجاعة وجسارة، وبكل مايتعرض له من غضب شقى الرحى معا.. أو أحدهما.. والبعض يحاول ان يحتمى من هذا بذاك فى لعبه قد يكتشفها الطرفان لكنهما يستمتعان بها.

والبعض يقنع نفسه، بل ويبدو مقتنعاً فعلاً بأن اللعب فى المتاح من مساحة خير من المجاراة والصمت، ناسيا ان الاكتفاء بالمتاح هو مجاراة للمتاح ولأصحابه.

وهذا البعض يبرر الأمر لنفسه وللغير بأن شيئا خير من لاشئ.. وأن القول بكلمات باهته، والكتابة بأقلام مقصوفة أفضل من صمت ميت ولاكتابه، أو أنه بما يقول ويكتب رغم مافيهما من مداراة ومجاراة خير ألف مرة من الآخرين المنغمسين فى تمجيد القائم والمستقر والسائد.

وان الخروج عن النص قد يغلق سبل القول والكتابة.

ولسنا نريد ان نفاضل بين أحد وأحد من رفقة الطريق الصعب، فقط نحكى عن «ثقب الأبرة» وما كان منه، محاولين فى هذه الكتابة أن نفسر كيف ان معركة التنوير إمتدت ومنذ رفاعة الطهطاوى عبر مسار الشوك مستكينه لثقب الأبرة، أو محاولة الاستعانة به لتوسيع مسارات التنفس التنويرى عبر قبضة الرحى المحكمة أو برغمها. أو حتى فى بعض الاحيان محاولة تحدى الرحى بشقية واحتمال ما لايمكن إحتماله فى سبيل هذا التحدى. ومحاولين ان نفسر أحد أسرار الحياة المصرية.. قزمية النتائج: الاستنارة والليبرالية والعقلانية.

برغم كل ما سكب من أجلها من حبر كتابه، وحبر طباعة، واهرامات ورق.. كانت فى أغلبها تحاول رغم جسارتها واستنارتها أن تمسك العصى من منتصفها، او تحاول أن تبقى الثقب مفتوحاً ليكون ممراً مزدوجاً ذهاباً.. وعودة.

●●●

ربما.. أقول ربما.. ظل ثقب الأبرة هذا متحكما فى مسارنا نحن وكل دول

المستعمرات السابقات لأننا خضنا معركة التحرير.. كمعركة لتحرير الأرض وليس لتحرير العقل والبشر.

هكذا كان الأمر دوما.. فمحمد على يسعى للتحديث والتطوير والتصنيع وتقليد الغرب أو مانسميه «التغريب» دون ان يضع فى اعتباره «الانسان».

وإسماعيل يفعلها.. مثله مثل جده.

وثورة عرابى لم يتح لها أمد حتى يمكن أن نحكم عليها أو نحاكمها.

أما ثورة ١٩١٩ فقد تزعمها زعيم اكتسب «كاريزما» تدير الرأس.. فدرات. وظلت لعبة الحكم تحكم تصرفه وتصرفاته حتى وقف بحسم حاسم ضد أية محاولة تنويرية حقه.. ففى معركة كتاب «فى الشعر الجاهلى» لطه حسين، خطب سعد زغلول فى جموع طلاب الأزهر الذين إحتشدوا بأمر من مشايخهم محتجين على الكتاب وصاحبه فقال: «هبوا مجنوناً يهرف القول».. فأطاح برأس طه حسين وبكتابه وبمعركة حق البحث وحق التعبير وحرية الكتابة والرأى والفكر بجملة واحدة.

«رجل مجنون يهرف القول»

وسواء فى معركة طه حسين أو معركة «الإسلام وأصول الحكم» تخاذل الحزب الليبرالى أو المقول أنه كذلك [الوفد]، ولم يقف فى صف الاستنارة الا المنبوذين سياسياً ووطنياً والذين وصفتهم زعامة الوفد الكازرمية التأثير بأنهم «احزاب الأقلية» و«اعوان الاحتلال» و«عملاء القصر».

لسنا هنا فى معرض تحليل تاريخى لكننا نذكر ونتذكر أن «تحرير الأرض» إنفصل فى أذهان معارضى التنوير ومؤيديه عن التحرير الأنسان والعقل. فهذه مسألة وتلك أخرى منفصلة عنها تماما.

تماما كما فعل عبد الناصر.. الأرض والوطن ومعاداه الاستعمار ورايات القومية والبناء والإصلاح الزراعى والتأميمات شئ.. وتكميم الأفواه والسجون

والمعتقلات شئ آخر.

وكأنه كان يقول للمصريين خـذوا وطناً حراً وهاتوا حريتكم بمقابلة.. خذوا خبزا واصمتوا.

ويكتـشف السادات الـلعبـة ويصيـح فى المصريين: خـذوا بعـضا من حـريه وهاتوا بعضا من خبز.. وكامب ديفيد و... و... الخ وتكون الدعوة إلى ليبرالية كاملة للاقتصاد.. وصمت كامل عن ليبرالية المجتمع.

المسألة منذ بدايتها هى انفصال حرية الوطن عن حرية المواطن.

وهى الآن «تحـرير الاقـتـصاد» «ولـيس تحريـر المواطن».. انه ذات الموقف.. وذات المسار.

والغريب والمثير لـلدهشة إننا إذ نتجول بأبصارنا فى مسـارات أحوال الكثير الكثـير من دول العـالـم الثـالـث نكتـشف ذات المفارقـة. بما يسـمح لنا إذ تتكرر الظاهرة فتكاد ان تصبح قانوناً ان نتدراسها لنفك رموزها وطلاسمها.

●●●

ونعود إلى ما بدأنا به.

فنحاول تبـرير الكتابة الآتية بأنهـا تأمل فى مسيـرة تنوير ينطلق من ثقب ابرة يتبدى وكأنه قدر محتوم وحـتمى.. ونواصل محاولة التبرير.. ربما. إذ نؤكد أن طموحنا لم يكن إبداً مجرد «التأريخ» وإنما التأكيـد على أهمية أن نتحدى قزمية المتاح.. وقزمـية النتائج. وأن نسعى نـحو مستقـبل أفضل.. لعلنا نستقـبل القرن القادم ونحن جديرون بالانتماء إليه.. فهل نستطيع؟

مايو ١٩٩٩

د. رفعت السعيد

رفاعة الطهطاوى
التنوير عبر ثقب الأبرة

«أوحد زمانه، ونادرة عصر وأوانه، المجد فى نفع وطنه ينشر المنافع.. الأمير المعظم، رفاعة بك رافع» هكذا أسماه تلاميذه [صالح بك مجدى ـ حلية الزمن بمناقب خادم الوطن رفاعة بك رافع. ص١].

أما فى باريس التى ألهمته أكثر ما كتب فقد أطلقوا عليه «مسيو شيخ رفاعة»

وفى السودان حيث أبعد على يد الخديوى عباس [عدو التعليم] أسماه تلاميذه هناك «خوجه».

ولعل هذه الأسماء جميعا لاتكفى لأن تقدم لنا صورة مبهرة ومرتبكة، وجدلية التركيب لأبو الليبرالية المصرية رفاعة الطهطاوى.

أنه آبانا وعنه ورثنا ما هو جيد وما هو غير جيد.

كان مستنيراً وذكياً ولماحاً وقادراً على المزج الماهر بين متطلبات الواقع.. وحقائق الدين الإسلامى، وتأويل بعض اقوال الفقهاء كى يرتكن إليها فى معاركه. وكان دؤوبا وقادراً على بذل وقت كاف وربما كل الوقت فى تحصيل المعرفة وفى تقديم المعرفة لتلاميذه [احصى منهم صالح بك مجدى مائة وخمسون طالبا تتلمذوا على رفاعة فى مدرسة الألسن وحدها] وفى حثهم على نشر معارفهم بين ابناء الوطن. وكان مصرياً يزهو بمصريته، داعية للديمقراطية والحرية والجمهورية، وأيضا تتبدى فى كتاباته نفحات اشتراكية، كان ذلك كله، لكنه كان أيضا «موظفا» حكومياً، ويعمل فى الاطار الحكومى ويلتزم بعدم الخروج على مقتضيات هذه الوظيفة.. ومن ثم عدم التعريض بالحاكم أو الاعتراض على فعاله.. وكان أيضا شيخاً أزهرياً يخوض معركته أساساً فى مواجهة ازهريين متشددين ومحافظين ومن ثم فقد فرض عليه، أو فرض هو على نفسه أن يظل دوماً «مناوراً» بين التحرير والحرية والليبرالية وبين الفقة الدينى المتشدد والغير قادر على التجدد وربما الغير القابل لأن يتجدد.

كان رفـاعة موظفـا حكوميـا [تأمل معى سيـره الجمـيع من تلاميذه وحـوارييه وتابعـيه وتابعى تابعـيه من صالح مـجدى.. وحتى قـاسم أمين، توفـيق الحكيم، طه حسـين، نجيب محفوظ.. هم جمـيعاً توظفـواً وأدمت معصـميهم قـيود الوظيفـة] وكان ملتزمـا بالالتزام بتعاليم مشايخ زمانه [اى بأفكارهم ورؤيتهم للدين].

.. ونحن وأكاد أقول نحن جميعا مثله بشكل أو بأخر.. بحيث يمكن القول أننا جميعاً طهطاويون بقدر أو بأخر.. جميعا نحاول فى إطار المستـحيلين، ولهذا تبقى ليبراليتنا ويبقى تنويرنا محاذراً، ومقيدا، ومحاولا لأن ينفذ عبر ثقب الأبرة.

•••

هذه الكلمات الأولية تحتاج إلى تفصيل مفصل، لنحاول أن نفهم ونتفهم، وربما لنتفاهم حول مـدلول التنوير فى زمان رفـاعة، وفى زماننا [إن رأى البـعض أن ثمة فـارق جوهرى وحاسم بين الزمانين والمعركتين].

ونعود إلى رفاعه.

كان أبوه غنـياً ثم فقـد أكثر ثروته. تجول مع ابيه بـحثا عن رزق ضـيق من قنا إلى إلى فـرشوط وعـدة مدن أخـرى، وأخيـراً.. لاحيله فى بـاب الرزق المغلق، ورحل الجمـيع إلى طهطا حيث أخوال رفاعة.

هناك فى درب اسمه درب الشيخ حيث يتجمع أخواله. وهم «أشراف» من قبيلة تسمى نفسها «الانصار» يتمسكون بنسبهم الشريف فيكتسبون مكانة ومهابة خاصة.

الولد رفاعـة «عفريت» اكتـشف ان الجميع ذوى لحى.. والجـميع ذوى عمامـات مميزة، والجمـيع يسمون أنفـسهم «الشيخ».. فكان يقف فى أول الدرب صـائحا «سيـدنا الشيخ» فتنفتح النوافـذ جميعا وتطل منها اللـحى والعمائم جميعـا، ليكتشفوا أنها لعبـة الفنى غير المدرب القادم من خارج الدرب.

حفظ رفاعة القرآن، وبعض الحديث، وتتلمـذ بعضا من الوقت على مشايخ «الدرب».. وأصبح مـثلهم شيـخا ذا عمـامه وأيضـا «أنصاريا» [اسمـه أضيف اليـه لقب الانصارى].. وعندما يبلغ السـادسة عشـرة تبيع أمهـا آخر ما تملك من حلى لتـدبر جنيهـين هما تكاليف

رحلته بمركب تصعد عبر النيل نحو القاهرة حيث حلم المجاورة فى الأزهر.

وأزهر هذا الزمان مختلف بعض الشئ.. هناك بصمات باقية من تمرد «الزعر والجعيدية والعوام» [أى العامة كما كان يسميهم الجبرتى] تحت قيادة المشايخ، وهناك بقايا الحملة الفرنسية وما حملته إلى مصر من معارف وعلوم وإنفتاح على العصر، وبقايا ثورتى القاهرة الأولى والثانية، ونفحه من نفحات سليمان الحلبى الذى أغتال كليبر.

وهناك الشيخ حسن العطار والشيخ حسين المرصفى.. وخصومهما من المتشددين.

الأزهر، وبإختصار، كان يموج بحالة فكرية صراعية بين القديم المتمترس فى قدمه، وبين محاولات هشه للتجديد. الشيخ جلال الدين السيوطى يقرر فى صرامة صارمة:

وكل خير فى إتباع من سلف

وكل شر فى إتباع من خلف

[السيوطى - جوهرة التوحيد].

ويرتمى رفاعة فى إحضان التيار الآخر. يلحق بركب استاذه الشيخ حسن العطار [كان أديباً وشاعراً ورحاله زار تركيا وفلسطين ودمشق، وكان مجدداً ومتجدداً فى أفكاره، خالط ضباط الحملة الفرنسية فقد كان يعلمهم اللغة العربية، ومنهم تعلم الفرنسية، ونال قسطا من الليبرالية، وكثيرا ما كان يؤكد لرفاعة «إن بلادنا لابد وأن تتغير أحوالها ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها». وهو استاذ لجيل من الأزهريين المستنيرين منهم رفاعة، ومنهم الشيخ عياد الطنطاوى الذى سافر إلى بطرسبرج ليدرس اللغة العربية فى جامعتها وعاد معه كتاب يشبه كتاب رفاعة اسماه «تحفة الأذكياء بأخبار بلاد روسيا»].

حسن العطار الذى رشح عياد الطنطاوى لرحلة بطرسبرج، رشح رفاعة لرحلة باريس.. الفارق بين رفاعة وعياد يعود بعضا منه إلى الفارق بين باريس وبطرسبرج.

وسافر رفاعه.

وكما طلب إليه استاذه قرر أن يكتب ما شاهده أولا بأول.

●●●

الفتى سافر «واعظا» للبعثة لكنه تفوق على كل دارسى البعثة.

كان الأكثر جدية فى الدراسة، والأسرع فى أتقان الفرنسية والأقرب إلى قلب الاساتذة المشرفين على البعثة وشهدت مقاهى «شارع المدارس» بالقرب من الحى اللاتينى، والمقاهى المواجهة «المدرسة البوليتكنيك» بالقرب من البانثيون مناقشات صاخبة بين مسيو شيخ رفاعة وبين كوسيه دى برسفال، وسيلفتر دى ساسى وفرانسوا جومار [كان عضو فى الاكاديمية الفرنسية، وكبير علماء الحملة الفرنسية والمشرف على وضع كتاب «وصف مصر»].

كان رفاعة «الأنصارى» «الصعيدى» «الأزهرى» «الموظف».. يبدو مستعصيا على الانثناء أمام ضغوط الفرنسيين المتحررين من كل قيد حتى قيد الدين.. وكان يؤكد لهم فى حسم حاسمٍ عبارة تمسك بها فى كتابه «تخليص الابريز فى تلخيص باريز» تقول «لو إننى إتبعت كل ما قاله الأفرنج، ووافقت آرائهم للحياء أو غيره، لكان ذلك محض موالسه».

حاولوا أن يضغطوا كى يغير زيه الأزهرى فقال «التمدن ليس فى زينه الملابس بعرف مجهول متخيل إستحسانه لاسيما إذا كان لايمكن لمن تزيا به إحسانه، فحاجة الوطن إلى المتعة الحقيقية أشد من حاجته إلى تقليد العرف الذى هو منفعة ظاهرية» [مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية ـ ط٢ ـ ص٢٢].

بل لقد حاولوا اقناعه «ان منافع مصر تقع موقع التحقيق لو دامت هذه المملكة فى قبضة الفرنساوية».. رفض رفاعة وربما ارتفع صوته عالياً مؤكداً «ان هذا الكلام مبنى على شبهة واهية، وهى أن مصر يسوغ ان تصلحها فرنسا أو أى مملكة تكون لها مضاهية، فإعتقاد ذلك من الايغال المدهى أو من باب الشبهات الفاسدة، وإنما يقتل النفوس التشهى».

لكنه مع ذلك كان يحب الفرنسيين «فلا شك أن الفرنساوية أقرب إلى العرب من الترك [لاحظ ان الكثيرين كانوا يعتبرون ان الارتباط بالترك ارتباط بالخلافة الإسلامية]. وذلك ان الفرنساوية يحرصون على الشرف والحرية ويحبون الافتخار، ويفون بعهودهم» لكنه مع ظل متمسكا بمصريته بل ويعتبرها معياراً لوجوده «فالبركة فى هذه الدنيا قسمت إلى عشرة أقسام إختصت مصر بتسع منها» [مناهج الألباب ـ ص ٢٢].

كما انه لم يكن معاندا لاساتذته الفرنسيين بل تجاوب معهم فيما يجب التجاوب معه.

ولعل المقارنة بين المخطوط الأولى لكتاب «تخليص الابريز فى تلخيص باريز» وبين النص النهائى، توضح الفارق بين رفاعة «الأزهرى» فقط ورفاعة «الأزهرى الباريسى».

فى الصفحات الأولى لتخليص الأبريز التى كان يكتبها أولا بأول عقب مغادرته «المحروسة» [القاهرة] نجد فى المخطوط «وقد حصل لى الغم الشديد بعدم تيسر زيارتى سيدى إبراهيم الدسوقى فى القرب من دسوق» وفى النص المنشور شطبت هذه العبارة بعد مناقشة طويلة مع كوسيه دى برسفال.

كذلك كان رفاعة يستخدم فى مسوداته كلمة «الكفرة» مرادفاً لكلمة «النصارى».

«فبلاد أوروبا أغلبها نصارى أو كفره»، ثم يتحدث عن الشرطة الفرنساوية [الدستور الفرنسى] قائلا «لتعرف كيف حكمت عقول الكفرة بأن العدل والأنصاف من أسباب تعمير الممالك، وراحة العباد» لكن سلفتر دى ساسى يعترض على وصف «الكفرة» ويتواصل النقاش، ويوافق رفاعة، ويشطب كلمة «الكفرة».

عاش رفاعة فى باريس مفتح العقل والعينين والوجدان، وتحول الواعظ الأزهرى إلى مثقف عصرى مهموم بهموم وطنه وعصره، خاصة وأنه كان يواظب يومياً على مطالعة «التذاكر اليومية المسماة بالجرنالات والتى لسائر أهل فرنسا ان تقول فيها مايخطر لها، وان تستحسن أو تستقبح ما تشاء» [تخليص الابريز ـ ط ١٩٥٨ ـ ص٩٧].

وينتهى زمن البعثة. ويعود رفاعة إلى مصر «ومصباح الغرب باحدى يديه ومفتاح الشرق باليد الأخرى» [صالح بك مجدى ـ حلية الزمن ـ ص٢]. ومعه أيضا مؤلفه الرائع «تخليص الابريز فى تلخيص باريز» الذى كان كما قلنا يكتبه أولا بأولا ويناقشه مع أساتذته الفرنسيين.

●●●

ومصر التى عاشها رفاعة فى أوج توهجه كانت مصر النموذج الذى بناه محمد على فى قمة صعوده.. التصنيع.. والتعليم.. وبناء الجيش.. وبناء الدولة الحديثة، مصر المشاريع العملاقة التى تلامست مع مساحة كبيرة من المصريين.

فى عام ١٨٣٩ اصبح تعداد الجيش المصرى ١٦٦ , ٢٧٧ جنديا وبحاراً.

وفى عام ١٨٣٧ كان عدد المصانع ٢٩ مصنعاً عدد عمالها ٣٠,٠٠٠ عامل.

وآلاف من الطلاب، فقد كان عدد طلاب مدرسة الطب البشرى ٧٠٠ طالب، والبيطرى ٣٥٠ طالبا، ومدرسة الفنون والصناعات ٦٠٠، ومدرسة الهندسة والمعادن ١٥٠ ومجموع طلاب المدارس الخصوصية أى المتخصصة ٤٥٠٠ طالبا [د. محمد فؤاد شكرى ـ بناء دولة محمد على ـ ص٧٩٣].

وهى مصر التى تلامست بعمق مع السان سيمونيين [ستون رجلا وامرأة] أتوا إلى مصر بقيادة أنفانتان ليسهموا فى بناء القناطر الخيرية، والترع والرياحات [أى ليتحكموا فى النهر. ألم تقم فلسفتهم على أساس التحكم فى الطبيعة بديلا عن التطور عبر الصراع الطبقى؟] ولم يقتصر دورهم على ذلك بل تعداه إلى مهام أخرى عديدة.

«القاء محاضرات فى الفن والأدب، إعداد إحصاء جغرافى، إنشاء مدرسة للزراعة، عمل تمثال نصفى للوالى، إدارة مدرسة الهندسة العسكرية، إقامة نفق فى شبرا، إقامة حفلات موسيقية».

ولقد تعلق السان سيمونيون بمصر فبرتلمى انفانتان والذى كان أكبر أنصار سان سيمون يكتب فى مذكراته «ان الشرق الغامض غموض الصحراء.. كلمة ساحرة مليئة بالضياء والغموض، والشرق معناه مصر.. مصر الساحرة، أرض فرعون وموسى والنيل».. وكانت مجموعة السان سيمونيين التى وصلت مصر تضم عشرة مهندسين، وتسعة أطباء، وثلاثة زراعيين وبعض الأدباء والرسامين والنحاتين» [الموسوعة الاشتراكية ـ دار الهلال ـ ١٩٧٠ ص٢٦٤]. ولعل لهذا التنوع دلالته.

أتى رفاعة إلى مصر متوهجا وربما متعجلا. يعين مترجما فى مدرسة طره العسكرية، ويتحين الفرصة كى يقابل محمد على ليهديه ترجمته لكتاب «ملطبرون» وفى هذا اللقاء يقنعه رفاعة بأمرين: أهمية تعليم اللغات الأجنبية، وأهمية اصدار جريدة.. واقتنع محمد على. وعين رفاعة ناظراً لمدرسة جديدة هى مدرسة الألسن، ويركب رفاعة «ذهبية» ليمر على القرى يمتحن تلاميذ الكتاتيب ويختار من تلوح عليه دلائل النجابة وبلغ عددهم ١٥٠ تلميذاً [صالح مجدى ـ حلية الزمن ـ ص٣٧].

وبذل رفاعة وقته وجهده لتلاميذه عاش معهم فى المدرسة الداخلية يحاضر وينظم ويراجع التراجم.. «وربما بدأ درسه بعد صلاة العشاء، وربما بعد صلاة الفجر، وربما استمر الدرس الواحد ثلاثة أو أربعة ساعات» [المرجع السابق].

ويثمر الجهد المضنى جيلا من المثقفين العصريين.. نتأمل هذا الوصف. فهؤلاء التلاميذ هم آباؤنا، وبهم أصبح فى مصر نوعين من المثقفين عصريين وأزهريين.

ويورد صالح بك مجدى معلومات مفصله عن هؤلاء المثقفين وعن وظائفهم وما ترجموه من كتب.. ونقرأ بعضا قليلا مما كتب: «منهم مصطفى البياع مترجم كتاب» «مطلع شموس السير فى وقائع كرلوس الثانى عشر» وخليفة محمود الذى أصبح رئيس فرع العلوم الاجتماعية بقلم الترجمة وله مترجمات عدة فى التاريخ، كما ترجم «تنوير المشرق بعلم المنطق» و«إتحاف الملوك الألبا بتقديم الجمعيات فى بلاد أوروبا» و«تاريخ الأمبراطور شارلكان للمؤرخ الانجليزى روبرتسون وليم وقد اختار له عنوان» «إتحاف ملوك الزمان بتاريخ الامبراطور شارلكان» وصدر فى ثلاثة أجزاء طبعت عام ١٢٢٦هـ. ومنهم عبد الله أبو السعود ناظر قلم الترجمة وأستاذ التاريخ فى مدرسة دار العلوم وصاحب جريدة وادى النيل ومن ترجماته «تاريخ الفلاسفة اليونانيين» «وتاريخ مصر القديمة» لمريت باشا، ومنهم أيضا صالح مجدى الذى تخصص فى ترجمة كتب الرياضيات والفنون الحربية وإشترك فى ترجمة القانون الفرنسى، ويقول عنه على باشا مبارك: «ان تراجمة ومؤلفاته بلغت خمسة وستون كتابا ورسالة وأنه كتب بيده من الكراريس ما لايدخل تحت حصر» [على باشا مبارك ـ الخطط التوفيقية جـ١ ـ] ومنهم كذلك أحمد عبيد رئيس قلم الترجمة بوزارة الحربية ومترجم كتاب «تاريخ بطرس الأكبر» ومحمد عثمان جلال صاحب كتاب «العيون اليواقظ» وهو تعريب شعرى لقصص لافونين ومترجم «بول وفرجينى» و«ترتوف لموليير». ومنهم أشهر اطباء العصر سالم باشا مؤلف العديد من المراجع الطبية، ومنهم أشهر المشرعين المصريين محمد قدرى باشا مؤلف «مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان» و«الأحكام الشرعية فى الأحوال الشخصية» [راجع لمزيد من التفاصيل: صالح مجدى ـ حلية الزمن ـ مرجع سابق، ود. أحمد بدوى ـ

رفاعة رافع الطهطاوى ـ ص٤٨ وما بعدها، وحسين فوزى النجار ـ رفاعة الطهطاوى ص١٦٤ وما بعدها ـ وعلى باشا مبارك ـ الخطط التوفيقية].. هل أطلنا فى الحديث عن هذه الكوكبة؟ ألم أقل أنهم آباؤنا؟

هذا الجيل من المثقفين تخرج سريعا.. وتوظف سريعا.. وصعد سريعا فى السلم الوظيفى الخالى، بل والمنتظر إياهم.

ونراجع بعضا من الاسماء: إبراهيم بك النبراوى «ترقى فى الرتب الديوانية إلى أن بلغ مرتبة المتمايز درس الحكمة فى فرنسا ونجب فى هذا الأمر، وترقى إلى رتبه اليوزباشى بوظيفة خوجه بمدرسة الطب.. واتخذه محمد على حكيمباشى لنفسه، وقربه وتخصص به وكثرت عليه اغداقات العزيز وانتشر ذكره وطلبته الفامليات والأمراء ولما مات خلف الفا وسبعمائه فدان [على باشا مبارك ـ الخطط الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة ـ الطبعة الأولى ١٣٠٥هـ ـ جـ ١٧ ـ ص٤] فقط نلاحظ ان على مبارك قال عن النبراوى ان اباه كان فلاحا فقيراً جداً.

وهناك عبد الجليل بك «وهو الآن بالمعية السنية وهو أول من يشار إليه فى التحريرات الأفرنجية بالبنان، ويثنى عليه رؤساه بكل لسان، وهو الآن كاتب سر بالمعيه» وأحمد بك عبيد «وهو الآن وكيل مجلس التجارة بالمحروسة» [صالح مجدى ـ جـ ٥٦].

وعبد الله أبو السعود «ترقى لرتبة البكباشى وفى سنة خمس وثمانين وفى ابتداء جلوس الخديوى إسماعيل على التخت تعين فى قلم ترجمة ديوان المدارس، واحرز رتبة القائمقام.. وجعل ناظر القلم، وفى آخر سنة ثلاثة وتسعين جعل من أعضاء مجلس الاستئناف» وهناك «عبدالله بك السيد الذى هو الآن رئيس مجلس تجارة الإسكندرية وعثمان باشا فوزى وكيل إدارة كريمة الوالى محمد على، ومحمد بك قدرى وهو الآن بمعيه أكبر النجال ولى النعم» [على مبارك ـ الخطط ـ جـ ١١ ـ ص٦٨].

ألم نقل من البداية ان الجهاز الإدارى الحديث كان فى انتظارهم بشغف.

وهكذا يمكن تتبع مسيرة هذا الجيل من المثقفين العصريين.. جيل تلاميذ رفاعة، ومسيرته هو نفسه؟ ابناء فلاحين........ تلاميذ فى مدارس الباشا محمد على........

موظفون حكوميون......... موظفون كبار. لكن المعادلة لم تكتمل بعد.

هناك ما أسمى «إنعامات الباشا».

محمد على قام بالغاء نظام الالتزام في الأراضى الزراعية و..«في هذه الفترة كانت الأرض تنقل تحديداً إلى اشخاص معينين يريد لهم الوالى أن يسهموا فى تحقيق مطامحه، ويرى المراقبون الأوربيون المعاصرون لمحمد على أن نظام العهده [اى الأنعام على شخص بمساحة من الأرض لتبقى فى عهدته] يمكن إعتباره دليلا على رغبة الوالى فى خلق طبقة ارستقراطية زراعية يمكنه أن يعتمد عليها عند الحاجة» [باير - تاريخ الملكية الزراعية فى مصر - ص٤٥].

ويتخذ باير بعض النماذج ليقدمها لنا..

مصطفى بهجت باشا [ابن فلاح فقير، نبغ فى الرياضيات والهندسة واسهم فى وضع تصميمات القناطر الخيرية] «منحه محمد على عهده ١٨٠٠ فدان.. ثم جاء عباس ليمنحه ٤٠٠ فدان» [ص٤٨].

حامد ابوستيت [وكان أيضا ابن فلاح فقير، ثم ترقى فى سلك الوظائف حتى صار محافظا لجرجا وكان يمتلك ٧٠٠٠ فدان و١٠٠ فدان مزروعة نخيلا» [ص٤٩] ورفاعة نفسه صار إيهابه أكثر من سبعمائه فدان رغم أنه سرعان ما عانى من غضب الحاكم عليه منذ عصر عباس.

واستمرت الانعامات طوال عهود مخمد على - عباس - سعيد - إسماعيل لتتراكم افدنه فوق افدنة فتخلق مساحات تتحول بصاحبها إلى مالك كبير.

يقول أحمد عرابى فى مذكراته «إن إسماعيل باشا قد أمر فور توليه الحكم لكل واحد من الباشوات بخمسمائه فدان ولكل من أمراء الآلايات بمائتى فدان، ولكل واحد من القائمقامات بمائة وخمسين فدانا [أحمد عرابى - كشف الستار عن سر الاسرار - جـ١ - ص١٩].

وهكذا اصبح المثقفون موظفين كباراً.. وأيضا كبار ملاك.

ولعل هذا يؤثر كثيراً جداً على مدى ليبراليتهم، ومدى قدرتهم على تحدى الحاكم

[الذى يمتلك الوظيفة والأرض معا] بتمرد تنويرى.

.. وكان هناك أيضا الأزهر.. ومشايخه الأزهر الذين أطاح محمد على بأكثرهم استناره وتحرراً لأنهم تمسكوا ولو بقدر ضئيل من الحريات والديمقراطية.. نفى نقيب الاشراف الشيخ محمد كريم إلى دمياط، وأطيح بالعديد من المشايخ المتمردين اما الباقون.. فنالوا الانعامات. والنتيجة معروفة.

وهكذا ازداد الأزهريون تشدداً ورفضا للجديد، وتقربا من الحاكم.

ويحاول رفاعة أن يمرق بعلميته وعقلانيته وليبراليته من ثقب الأبرة، فمثلا معركة كروية الأرض ودورانها أخذت كثيراً من النقاش والجدال وانتهى الأمر عند الأغلبية بأن القول بها كفر.. لكن رفاعة يكتب محاذراً «ان القول بدوران الأرض واستدارتها لايخالف ما وردت به الكتب السماوية، وذلك لأن الكتب السماوية قد ذكرت هذه الاشياء فى معرض وعظ أو نحوه، جريا على مايظهر للعامة، لاتدقيقا فلسفيا. مثلا ما ورد فى الشرع ان الله تعالى أوقف الشمس، فالمراد بوقف الشمس تأخير غيابها عن الأعين، وهذا يحصل بتوقف الأرض عن الدوران، وإنما أوقع الله الوقوف على الشمس لأنها هى التى يظهر فى العين سيرها» رفاعة كتب هذه العبارة فى مسودة تخليص الابريز، لكنه لم يتجاسر على نشرها فى الكتاب فشطبها قبل طبعه. لكن رفاعة يبحث عن حيلة أخرى لعرض رأية فيقول «ووقعت محاورة بين العلامة الشيخ محمد المناعى التونسى المالكى المدرس بجامعة الزيتونة، وبين مفتى الحنفية العلامة الشيخ محمد البيرم المؤلف لعدة كتب فى المنقول والمعقول وله أيضا تاريخ دولة بنى عثمان حول كروية الأرض أو بسطها، البسط للمناعى والكروية لخصمه، وممن قال من علماء المغرب بأن الأرض مستديرة وأنها سائرة العلامة الشيخ مختار الكنتاوى بأرض إزوات قرب بلاد تمبكتو، وهو مؤلف مختصر فى فقه مالك ضاهى به متن الخليل، وضاهى أيضا ألفيه إبن مالك، وألف كتابا اسمه «النزهة» جمع فيه جملة علوم فذكر بالمناسبة علم الهيئة فتكلم عن كروية الأرض وعن سيرها ووضح ذلك، فتلخص كلامه فى أن الأرض كرة ولايضير إعتقاد تحركها أو سكونها» [تخليص الأبريز - ص ٩٧].

وهكذا.. واذا كـان رفاعـة قد خـشى الافصـاح عن رأية، فقـد كسب نقطة فى الجـولة الصعبة وهى أنه من الممكن القول بأن الأرض كرة وأنها تدور دون خشية الأتهام بالكفر..

.. وهكذا كتب عـلى رفاعة.. المثـقف العصرى.. المـوظف الحكومى.. الملتزم بالتـعاليم الأزهرية ان يضع حدوداً مـحددة سلفا لعـقلانيتـه وتنويريته.. وليـبراليتـه.. حدود لايمكن إختراقها.

انه المروق بتنويرية مـحدودة ومحـددة عبر ثقب إبرة مـزدوج.. تحاشى غـضب الحاكم، وتحاشى غضب رجال الدين.

●●●

ثم.. ولكن، أين رفاعة من ذلك كله؟

لن نتحدث طـويلا عن أفكاره.. فلا هذا ممكن، ولا هو مطلوب، فلعل الكثيـر قد كتب عنها، ولعله يكفينا بعض اقتباسات تقدم لنا قبسا من فيض مستنير وان ظل محاذراً.

● هو يتحدث عن شيوخ الأزهر مؤملا فى تلامـسهم مع العلوم العصرية قائلا «ان مدار سلوك جادة الرشـاد والاصابة، منوط بأولى الأمر فى هـذه العصابة، التى ينبـغى ان تضيف إلى مايجب عليها من نشر السنة الشريفة ورفع إعلام الشـريعة المنيفة، معرفة سائر المعارف البشرية المدنية التى لها مدخل فى تقديم الوطنيـة، لا سيما وان هذه العلوم الحكمية العلمية التى يظهـر الآن أنهـا أجنبـية هـى علوم إسلامـيـة نقلهـا الاجـانب الى لغـاتهم من الكتب العربية». [مناهج الألباب ـ ص ٢٧٣].

● عن التعليم «التعليم يجب أن يكون عاماً لجميع الناس يتمتع به الأغنياء والفقراء على السواء، فهو ضرورى لسائر الناس يحتاج إليه كل إنسان إحتياجه إلى الخبز والماء» [فى عام ١٩٥٠ قال طه حسين عبارة مماثلة فإعتبرت ثورة فكرية].

● وعن تعليم البنـات «ان القول بأنه لاينبـغى تعليم النـساء الكتـابة وأنهـا مكروهة فى حقهن إرتكازاً على النهى عن ذلك فى بعض الآثار فينبغى الا يكون على عمومه، ولا نظر إلى قول من علل ذلك».. «وقد اقـتضت التجربة فى كثير من البلدان ان نفع تعليم البنات أكثر من ضرره، بل لا ضرر فيه أصـلا» [رفاعة الطهطاوى ـ المرشد الأمين للبنات والبنين ـ

ص ٦٦ وما بعدها].

• وعن فرض الحجاب على المرأة «ان وقوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء لايأتى من كشفهن أو سترهن بل ينشأ من التربية الجيدة أو التربية الخسيسة، والتعود على محبة واحد دون غيره وعدم التشريك فى المحبة» [تخليص الابريز ـ ص٣٠٥].

• وعق حق المرأة فى العمل «فكل ما تطيقه النساء من العمل يباشرنه بأنفسهن، وهذا من شأنه أن يشغل النساء عن البطالة، فإن فراغ أيديهن من العمل يشغل ألسنتهن بالأباطيل وقلوبهن بالأهواء وافتعال الاقاويل.. أن العمل يصون المرأة عما لايليق بها ويقربها من الفضيلة..» «فإن اليد الفارغة تسارع إلى البشر، والقلب الفارغ يسارع إلى الأثم» [تخليص الابريز ـ ص ٢٠١].

• بل أنه فرض على نفسه أمام زوجته الحاجة كريمة «ان يبقى معها وحدها على الزوجية دون غيرها من زوجة أخرى ولا جارية أيا كانت، وعلق عصمتها على أخذ غيرها من نساء.. فإن تزوج بزوجة أخرى كانت الحاجة كريمة بمجرد العقد طالقة بالثلاثة، وكذلك اذا تمتع بجارية ملك يمين» [دار المحفوظات بالقلعة. ملف رفاعة الطهطاوى. والوثيقة محررة بخطة وموقعة منه ومختومة بخاتمه].

• وعن الحرية «الحرية هى الوسيلة العظمى فى إسعاد أهالى الممالك، فاذا كانت مبنيه على قوانين حسنة عدلية كانت واسطة عظمى فى راحة الأهالى، وإسعادهم فى بلادهم» و«الحرية قرينه المساواة فكلاهما ملازم العدل والاحسان» و«التسوية فى الحقوق ليست إلا عبارة عن تمكن الانسان شرعاً من فعل أو نيل ما يمكن لسواه من إخوانه أن يفعله أو يناله أو يمنع منه شرعاً» و«استواء الأنسان فى حقوقه مع غيره، يستلزم إستواءه مع ذلك الغير فى الواجبات.. لأن التسوية فى الحقوق ملازمة للتسوية فى الواجبات» [المرشد الأمين ـ ص ١٢٨].

• وعن قدرة الرأى العام.. «فإنه مما يحمل الملوك على العدل ويحاسبهم محاسبة معنوية.. الرأى العمومى، أى رأى عموم أهل ممالكهم.. فإن الملوك يستحون من اللوم العمومى، فالرأى العمومى سلطان قاهر على قلوب الملوك والأكابر، لايتساهل فى حكمه،

ولايهزل فى قضائه، فويل لمن نفرت منه القلوب، واشتهر بين العموم بما يفضحه من العيوب» [مناهج الألباب ـ ص٣٥٥].

وهو يترجم الدستور الفرنساوى charte ويترجم الكلمة حرفيا فيسميه «الشرط» أى المشارطة بين الحاكم والمحكومين. وكان يدرسه لتلاميذه فى مدرسة الألسن كمادة أساسية.. ويتعلم منه تلاميذه:

ـ سائر الفرنساوية مستوون قدام الشريعة. م٣

ـ كل واحد منهم متأهل لأخذ أى منصب كان أو أية رتبة كانت. م٣

ـ ذات كل واحد منهم مستقل بها، ويضمن لها حريتها م٤

ويشرح رفاعة لتلاميذه مواد الدستور «فاذا تأملت رأيت أغلب ما فى هذه الشرطة نفيساً، فإنظر إلى هذه المادة «سائر الفرنساوية مستوون قدام الشريعة» فإن لها تسلط عظيم على إقامة العدل وإسعاف المظلوم، وإرضاء خاطر الفقير بأنه كالعظيم نظراً لإجراء الاحكام.. وهى من الأدلة الواضحة على وصول العدل عندهم درجة عالية وتقدمهم فى الآداب الحضرية» [تخليص الابريز ـ ص ١٤٨].

• وهو يقارب بين النظامين الملكى والجمهورى «والملكية أكثرهم من القسوس وأتباعهم، وأكثر الحريين [انصار الحرية] من الفلاسفة والحكماء وأغلب الرعية، فالفرقة الأولى تحاول إعانة الملك، والأخرى اضعافه واعانة الرعية. ومن الفرقة الثانية طائفة تريد ان يكون الحكم بالكلية للرعية ولا حاجة إلى ملك أصلا.. ولكن لما كانت الرعية لاتصلح أن تكون حاكمة ومحكومة وجب أن توكل عنها من تختاره منها للحكم وهذا هو حكم الجمهورية [المرجع السابق].

• ويعلم رفاعة المصريين ان «حب الوطن من الإيمان». ويعلم تلاميذه اناشيداً تقول:

ياصاح حب الوطن.. حلية كل فطن

فمحبة الأوطان.. من شعب الإيمان

وأيضا:

مال المصرى كذا دمه.. مبذول فى شرف الوطن

تفديه العين بناظرها.. والنفس بخير ذخائرها

● وعن الأوضاع الاجتماعية.. «الأرض للزراعين»

ويقول شعراً:

من رام نظمه بسلك السعدا.. فليسعد الناس ليبقى مسعداً

يحب مثل ماله لغيره.. يعطى أخاه جانبا من خيره

والعمل تماما كما يقول ماركس «هو القوة الأولية فى إبراز المنافع العمومية» [مناهج الألباب ـ ص ٨٠] ويقول «ان قيمة العمل مجسمة للمصنوعات والمشغولات» [المرجع السابق، ص ١٠٤].

ويشرح رفاعة «لوزرعنا أرضا خصبه، وميزنا ما يمكن ان ينسب من ايرادها للعمل، وما نسب للخصوبة منه، وفرزنا كلا على حدته، وجدنا محصول العمل أقوى من محصول الخصوبة» [مناهج الألباب ـ ص ٨٧].

وأيضا «ان الملاك فى العادة تتمتع بالمتحصل من العمل، ولا تدفع نظير العمل الجسيم إلا المقدار اليسير الذى لايكافئ العمل، فما يصل إلى العمال فى نظير عملهم فى المزارع أو إلى أصحاب الآلات فى نظير اصطناعهم لها هو شئ قليل بالنسبة للمقدار الجسيم العائد إلى الملاك» [ص٩٤].

●●●

كل هذا كان مروراً عبر ثقب الأبرة.

لكن ما قبله ـ أو تغاضى عنه ـ محمد على لم يقبله خليفته الجاهل والجهول عباس.

عباس يهاجم كتاب تخليص الابريز ويقول أنه «يفيض بآراء تهييج الرعية، وتحضها على التمرد وعدم إطاعة الحاكم طاعة مطلقة» ثم يطيح برفاعة نفسه فيرسله إلى السودان ناظراً لمدرسة ابتدائية كل عدد تلاميذها ٣٨ تلميذا..

ولم تكن المعركة ضد فرد بل ضد مجمل هذا الجيل من المثقفين.

وبعد عام واحد من تولى عباس الحكم يكتب لمدير المدارس قائلا «عند وصولى إلى مديرية المنيا إمتحنت المهندسين والمتخرجين والمتربين فى ديوان المدارس الذى أسس لنفع

الوطن ولتربيـة أولاد الأمـة المصـرية فظهـر انهم مـجردون مـن العلم والعـمل اللازم لهم ولخدمـتهم، وبمطـالعة الجرنـال المرسل طرفكم ستـعلمون أنهم صـفر اليـدين من كل علم وعمل.. فبينما نحن منتظرون منهم الفائدة إذا هم يتسببون فى خراب الأقاليم، ان هذا لشئ يحـرق القلب، بناء عليـه يحق لى ان ألغى ديوان المدارس.. وأطرد الاساتذة والمهندسـين المومى إليـهم والبالـغ عددهم ١٥ شـخصـا حيث أنهم لايعرفـون شـيئـا خلاف تخـريب الأقـاليم. وقـد طردتهم من الخـدمـة أبديا، وكـتـبت إلى مـدير الأقـاليـم الوسطى أن ينزع نياشينهم ويرسلها إلى الديوان» [محمد صبيح ـ مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية ـ ص ١٣٠].

لم يكن الأمر أذن أمر كـتاب «يهيج الرعية» ولا أمر رجل يـدعو للحرية والتنوير، وإنما كان أمر جيل بأكمله من المثـقفين كان من الضرورى إيقاف مسيـرته ومنعه من التقدم حتى لايحترق قلب الخديوى.

•••

ويبقى أن نسأل أنفسنا.. إلى أى مدى لم نزل طهطاويون..؟

ومتى.. متى يمكن ان نكون تنويريين دون قيود طهطاوية..؟

فرح أنطون
مثقف يتحدى ثقب الأبرة

• فليحذر العالم من يوم يصير فيه الضعفاء أقوياء، والأقوياء ضعفاء • لاتقل هاتوا زعيما صادقا، بل قل هاتوا شعبا راقيا وأنا كفيل بزعيم حر من بين الحقول وأكواخ الفقراء.

• ان نشر المبادئ الاشتراكية وحده لايكفى لتأييد الاشتراكية، بل لابد من تحريض أنصارها على تنفيذها بالقوة، ولابد من غرس فكرة التحريض فى الناشئة الجديدة والا بقيت الاشتراكية فلسفة نظرية فقط إلى ما شاء الله.

« فرح أنطون »

أ- بطاقة شخصية مطولة:

الاسم: فرح أنطون

تاريخ الميلاد: ١٨٧٤

محل الميلاد: طرابلس (لبنان)

مهنة الأب: تاجر أخشاب

الصناعة: تخرج من مدرسة كفتين، ثم اشتغل مع أبيه فى تجارته، ثم استقل بتجارة خاصة به لكنه مالبث أن ترك التجارة «لأنها لاتتفق مع ذوقه، ولأن الأخلاق اللازمة للتجارة ليست فيه، ولأن نفسه كان نازعة إلى الأعمال العقلية» (١)

وبعدها تولى إدارة مدرسة أهلية فريدة من نوعها فى طرابلس، فالمدرسة أنشائها جميعة خيرية للروم الإرثوذكس، لكنها لم تكن مدرسة طائفية، بل على العكس من ذلك فقد حرصت إدارتها على نبذ الطائفية وانعكس ذلك ليس على تلاميذها فحسب، بل وعلى

(١) فرح أنطون ـ حياته وتأبينه ومختاراته ـ ملحق بالسنة الرابعة من مجلة السيدات والرجال ـ سبتمبر ١٩٢٣ ـ مطبعة يوسف كوى بمصر ـ ص١٠

إداراتها أيضا فرئيس المدرسة كان بروتستنتيا والمدير والناظر مارونيا، وأستاذ اللغة العربية مسلم ولم يكن بها إلا مدرس أرثوذكسي واحد، ولقد تركت هذه التجربة الرائعة أثراً لايمحى في نفس فرح أنطون، فقد تعلم فيها رفض التعصب الطائفي أو الديني أو المذهبي.. ويكتب فرح فيما بعد «أن هذه المدرسة قد تركت أثراً أدبيا لم يبرح نفسي قط، ولعله كان ذا تأثير على أفكاري في كل حياتي» (٢).

- وأسس في طرابلس جمعية أدبية.. «ثم استقر رأية في النهاية على أن يتخذ صناعة القلم حرفة شريفة وهو يعتقد أنها خير ذريعة لخدمة الشرق، ويظن أن صرير القلم خير صارخ في الآذان لايقاظ أهل الأوطان الشرقية.. وكان يعتقد أنه مجند من المجندين لهذه الخدمة» (٣).

- في عام ١٨٩٧ جاء إلى مصر، ليبدأ معركته الحقيقية من أرضها فقد كان يعتقد «أن مصر هي المركز الأوسط لجميع العالم العربي، ومنه تنتشر الخدمة الوطنية الأدبية انتشار الأشعة إلى جميع الجهات».

وعلى الفور بدأ في الكتابة بالصحف، لكنه كان ينشر مقالاته بأسماء مستعارة، ولهذا تعذرت متابعتها، لكنه من المعلوم أن كتب عدة مقالات في جريدة الأهرام بتوقيع «سلامة».

- في عام ١٨٩٩ أصدر مجلة «الجامعة» وهي واحدة من أشهر وأعمق المجلات ذات الطابع الموسوعي التي شهدتها مصر عبر تاريخها الحديث، وقد أسماها في البداية «الجامعة العثمانية».. «ودعى على صفحاتها كل شعوب الشرق التي تحكمها الدولة العثمانية للعمل المشترك ضد الغرب الاستعماري لكنه كان يروج أيضا فوق صفحاتها علوم الغرب وكثيراً مما يتردد فيه من آراء ومذاهب - فكان فرح شرقيا يكره أوروبا، لكنه يحب الكثير من عقائد الغرب الاجتماعية» (٤).

وكانت مجلة الجامعة واحدة من أكثر المجلات المصرية عمقا، وسعة أفق، وإنفتاحا على

(٢) مناهل الأدب العربي - فرح أنطون - مكتبة صادر بيروت (١٩٥٠) - ص٣
(٣) نقولا الحداد - مقال - ملحق مجلة السيدات والرجال - المرجع السابق - ص١٠
(٤) مارون عبود - جدد وقدماء - دار الثقافة - بيروت (١٩٥٤) - ٢٥

كل ما هو جديد فى مجال العلم والمعرفة.. «ولقى الادباء والمفكرون فى هذه المجلة الطريفة مغنى ومرتعا، تجلى لهم فيها الابتكار فى موشى أثوابه، ومبهج ألوانه، ولقد ثقل ردنها بالفوائد، وأعيت صفحاتها الجلائل بالطرف وشهد الثمرات، بحيث ارتفعت فى أعداد معدودات إلى مرتبة أقدم المجلات العربية وأوسعها وأذيعها، ثم نمت وأوفرت، بحيث صارت شغل المفكرين ورأيهم، وسوق عكاظ لرجالات العلم والحكمة فيها يتساجلون ويتنافرون» (٥).

ويتحدث صحفى آخر عن مجلة الجامعة قائلا «أنها كانت مجلة أصحاب المبادئ الجديدة، والذين حرروا عقولهم من القديم، وكان صاحبها يحاول بها تحرير العقول الشرقية، والمذاهب الاجتماعية من ربقة الماضى، ففاز بعد نضال كبير، وأوجد حزبا كبيراً يناصره، وهو حزب العصر الجديد، عصر الإنطلاق والأفلات من كل قيد إلا ما يأمر به العقل والاكتشاف» (٦).

ـ وعندما انتقلت جريدة الأهرام من الاسكندرية إلى القاهرة طلب منه المرحوم تقلا باشا أن يتولى تحرير النسخة الإسكندرية من الاهرام والتى كانت تسمى «صدى الأهرام».

وسرعان ما أصبح «الصدى» أكثر أهمية، وأكثر ذيوعا من الأصل.. ويروى صحفى آخر ما حدث فيقول «حرر فرح صدى الأهرام الاسكندرية حتى كان الصدى يتغلب على الصوت فى القاهرة فانتزعه منه من يملك الاثنين معا» (٧).

ـ أصدرت شقيقته روز أنطون التى أصبحت زوجة للمفكر نقولا حداد مجلة «السيدات» وكان فرح يعاونها فى تحريرها.

ـ وفى عام ١٩٠٧ اقترح عليه ابن عمه الياس أنطون التاجر فى نيويورك أن يرحل إلى أمريكا وأن يمارس نشاطه الصحفى هناك باعتبار أن المغتربين هناك حقل واسع لبث مبادئ الحرية.

---

(٥) أحمد أبوالخضر منسى ـ فرح أنطون ـ مطبعة الاعتماد (١٩٢٣) ص٢٠

(٦) محمود إبراهيم (صاحب مجلة الأكسبريس) ـ مقال بملحق مجلة السيدات والرجال ـ المرجع السابق ص ٢٨

(٧) لطفى جمعه ـ مقال بملحق مجلة السيدات والرجال ـ المرجع السابق ـ ص٢٠

وهكذا سافر الثالوث «فرح ـ روز ـ نقولا» إلى أمريكا ليواجهوا معركة جديدة وأصدروا هناك «الجامعة» نسخة شهرية وأخرى أسبوعية وثالثة يومية لكنها سرعان ما توقفت لأسباب مالية.

ـ وفى أمريكا تبنى وبشكل حماسى فكرة اشتغال المغتربين الشوام بالزراعة، وانشغل فى جمع توقيعات على عرائض تطالب الحكومة الأمريكية بمنحهم الأراضى بشروط ميسرة.

ـ وقد تأثر فرح أنطون وبقية الثلاثى إلى حد كبير بأفكار الاشتراكيين الأمريكيين ومنهم أوجين دبس، وهنرى جورج.. الخ.

ـ وعندما وقع الأنقلاب العثمانى.. عجل الثلاثى بالعودة إلى مصر، فها هو الشرق يتحرك ولابد أن يواكبوا حركته، وفى طريق العودة التقى فرح أنطون بمحمد فريد فى باريس واتفق معه على أن يشارك فور عودته إلى مصر فى تحرير صحف الحزب الوطنى.

ـ حرر فرح أنطون العديد من الصحف واشتهر بأنه الصحفى الذى تسبب فى أغلاق أكبر عدد من الصحف بسبب حدة مقالاته.

ـ كان آخر ما أصدره من صحف هو «الأهالى» وقد صدر منها عددان فقط وصودر العدد الثالث.. وتوفى بعدها فرح أنطون.

•••

والآن.. هل تستطيع أن نقترب أكثر من هذا الرومانسى الاشتراكى؟

ب.فرح أنطون..الكاتب الصحفى

قلنا أن فرح أنطون حرر العديد من الصحف.. «الجامعة»، «البلاغ المصرى»، «اللواء»، «مصر الفتاة»، «مصر»، «الوطن»، «الأهالى»، «صدى الأهرام»، «المحروسة»، «السيدات».

ويعلق لطفى جمعه على كتاباته الصحفية قائلا «.. وفى كل جريدة من تلك الجرائد كنت تدافع عن الحق وعن الوطن، أى عن مصر التى عددتها لنفسك ولأهلك وطنا ثانيا، ولم يتحول مذهبك يوما، ولم يتغير رأيك ساعة، كنت تكتب باعتقاد واخلاص، وتنصر

الحق أيا كان، فأنتصرت لنا، ولمبادئنا الوطنية فى أحرج مواقفنا، وانتصرت للعمال فى أحزانهم وانتصرت للشعب على السلطة، وللحق على القوة، وللمحكومين على الحاكم المستبد وفى الوقت الذى كان فيه كثيرون من النزلاء الشرقيين يستبيحون كل منكر ضد مصر والمصريين، كنت أنت ونفرا قليلا من الرجال المباركين تعرفون لمصر جميلها وتأخذون بيدها فى شدتها، وهاذ جميل نذكره لك ولاننساه» [٨]

وكانت مقالات فرح أنطون ملتهبة دوما بحيث كانت الواحدة منها كافية لانذار الصحفية أو اغلاقها فوراً.. وكان الناس فى عهده يتندرون بذلك ويسجلون حكايات عديدة عن مقالاته ودورها فى أغلاق الصحف.

وثمة قصة عن مقال وحيد.. أقفل جريدة «مرض رئيس تحرير مصر الفتاة توحيد بك السلحدار، وكان فرح أنطون يومئذ يحرر فى اللواء فناب مناب توحيد بك للصداقة التى بينهما فكتب مقالته المأثورة، ولكنها للأسف كانت سببا فى اغلاق وزارة سعيد باشا لهذه الصحيفة بغير سابق انذار، وهو أغلاق لم تبعث بعده إلى اليوم» [٩]

وكان فرح يوقع الكثير من مقالاته باسم مستعار بأمل ألا يستثير السلطة ضد الجريدة، أو يوقعها بالحرف الأول (ف.أ) أو بالحرفين الأولين «فران».

.. «وقد روى الأستاذ عبدالقادر حمزه أن السلطة العسكرية شددت على «المحروسة» الوطأة وكانت منذرة بالأغلاق، فاتفقنا على أن نرجح كفه السياسة الخارجية على كفة السياسية الداخلية حتى تهدأ العاصفة.. فكلمت فرحا فى ذلك فلم يتمالك نفسه ثم امتعض» [١٠].

ويفسر نقولا حداد هذا الحماس الدافق قائلا «بهذه الروح عاد فرح من أمريكا إلى مصر، فاذا بالشعب المصرى قد انتقل من دور العلم إلى دور العمل، ووجد أن الزرع الذى زرعه فقيد الوطن مصطفى باشا كامل وأنصاره قد نضج وأن وقت الحصاد قد حان. وجد أن النهضة الوطنية التى كانت تختمر فى السنين الماضية قد تحركت فصادفت هوى فى

(٨) المرجع السابق ـ ص٢٢
(٩) أحمد أبو الخضر منسى ـ المرجع السابق ـ ص٣٤
(١٠) المرجع السابق ـ ٣٩

نفسه وأى هوى، رأى أن فكرة «التنفيذ» التى نضجت فى نفسه قد نضجت أيضا فى هذا الوطن الذى أصبح محور النهضة الشرقية كلها.. فأنصرف عن النظريات الفلسفية إلى العمل، وتحول من العلم إلى السياسة. واتفق فى ذلك الحين أن انتدب للتحرير فى بعض الصحف اليومية فوجدها ميداناً أوسع لجولات قلمه فترك الجامعة (وهذا هو السر فى أنه أغلق الجامعة التى كانت متخصصة فى الابحاث الفلسفية والعلمية كى يتفرغ ليصب نيران غضبه فى مقالات سياسية ملتهبة) وتنقل بين العديد من الصحف فكان لكتاباته تأثير كبير فى نفوس الجمهور، تأثير يعرفه جيداً أصحاب تلك الجرائد حتى حسبت السلطة له حساباً وأى حساب».

ويواصل نقولا حداد حديثه قائلا أن أحد الموظفين المقربين من سلطات الاحتلال قال له «أن نسيبك (أى فرح أنطون) متهور فى كتاباته بشأن الحركة الوطنية، فأخشى أن يفضى تهوره إلى نفيه كما نفى أصحاب البلاغ المصرى، فحبذا أن تنصح له أن يعتدل».

.. ثم مالبث هذا الموظف أن استدعى فرح أنطون وأنذره هذا الانذار فرد عليه قائلا «أتأسف أن أقول لك أننى لست أحترف القلم لكى استرزق منه فقط، بل احترفه لأكتب ما تقرأه فاذا لم يؤذن لى أن أكتب ما يوحى إلى به ضميرى، سأطلب الرزق من حرفة أخرى» ويرد عليه عميل الاحتلال قائلا: نعم الأفضل أن تحترف حرفة أخرى».

ويمضى نقولا حداد قائلا «غير أن فرحا لم يكترث، بل استمر فى خطته فكانت نتيجتها حينئذ اقفال ثلاث جرائد على التوالى بسبب شدة قلمه وتشبثه بالحرية وأيضاح الحق» [11].

وأسهم فرح فى تحرير صحف الوفد، حتى أنه قد أعتبر وفديا متطرفا، لكنه وفدى من نوع خاص، فما أن لاحظ على تصرفات سعد زغلول بعضا من التردد، عندما أعلن سعد فى تصريح لجريدة الأخبار استعداده للتفاوض مع الانجليز، حتى تحول فرح من تأييد سعد إلى معارضته، بل وحول معه «الأهالى» الى معارضة سعد ـ برغم أنها كانت تعتبر منبراً وفديا.

---

(١١) نقولا حداد ـ مقال ـ ملحق مجلة السيدات والرجال ـ المرجع السابق ـ ص١٣٢

ويخوض فرح أنطون معركته حتى مداها فتنشر الأهالى قصيدة عنيفة ضد سعد زغلول الزعيم المهاب للأمة والذى ما كان لأحد أن يتجاسر ضده بأى انتقاد.. تقول القصيدة:

إلى أين تمضى بالأمانة باسعد

وتجنى على شعب عليك له العهد

رويدك لاتعبث بآمال أمة

شغوف بالاستقلال يهتاجا المجد

فياسعد حاذر أن تزل طريقة

وإلا فلا سعد هناك ولا وفد. (١٢)

ويقود فرح أنطون على صحفات الأهالى حملة لجمع توقيعات تعلن سحب التوكيل من الوفد، وتفسح صحفاتها لنشر أسماء الموقعين لعدة أيام على التوالى تحت عنوان «الرأى العام يسقط التوكيل عن الوفد» (١٣).

بل أن «الأهالى» تحت قيادة فرح أنطون تتحول إلى التحالف مع «جمعية الطلبة المصريين فى باريس» وهى الجمعية التى كانت تجسد تحرك الطلاب المصريين اليساريين والتى اختارت كرمز لثورة ١٩١٩ علما ذا رقعة حمراء وهلال وثلاثة نجوم وذلك كبديل عن العلم ذو الرقعة الخضراء الذى كان سائدا فى هذه الأيام، وعلى صفحات الأهالى تنشر العديد من بيانات هذه الجمعية اليسارية متخذه عناوين مثل «احذروا المفاوضة أيها المصريون» (١٤)

و«الجمعية المصرية بباريس تنزع ثقتها فى الوفد وتطلب الامتناع عن كل مفاوضة» (١٥ - ١٦).

ويتواصل هذا الحلف اليسارى لفترة حتى يتراجع سعد تحت ضغط الجماهير ويرسل

---

(١٢) الأهالى ١٤ / ١ / ١٩٢١

(١٣) الأهالى ١٠ - ١١ - ١٢ - ١٣ - ١٤ - ١ / ١٩٢١

(١٤) الأهالى ١٤ / ١ / ١٩٢١

(١٥) الأهالى ٢٥ / ١ / ١٩٢١

(١٦) لمزيد من التفاصيل عن دور الجمعية المصرية بباريس ودور اليسار فيها راجع: د. رفعت السعيد تاريخ الحركة الشيوعية المجلد الأول - وأيضا د. رفعت السعيد - عصام الدين حفنى ناصف - دار الثقافة الجديدة - القاهرة.

برقية إلى جريدة الأخبار يقول فيها: «أنى لا أدخل أى مفاوضة على أساس مشروع ملنر قبل تعديله بالتحفظات، ولا أؤيد من يدخل فيها بدون هذا الشرط، مهما كانت علاقته بشخصى، ومهما كانت ثقتى به» (١٧).

ويعود فرح أنطون وتعود الأهالى لتأييد سعد وتزف البشرى للجماهير الثائرة قائلة «الاستقلال التام هو الراية التى يلتف حولها الجميع» (١٨)

ولقد كان قلم فرح صاعقا وحادا كسكين، ولم يعرف المهادنة أو الملاينة، وبعد أن تسببت مقالاته فى أغلاق العديد من الصحف، استقر فى «الأهالى» فأغلقت «الأهالى» ستة أشهر، وصدرت «المحروسة» لتحل محلها، فأغلقت المحروسة وأوشكت الشهور الستة على الانتهاء بما يعنى قرب عودة «الأهالى» من جديد ويجرى الحوار التالى بين الصديقين فرح ونقولا الحداد.

«الحداد: من الأفضل أن تخففوا الهجوم حتى تسلم «الأهالى» من عقاب الأقفال.

فرح: معنى هذا أن نرمى سلاحنا ونرفع العلم الأبيض ونسلم أنفسنا للخصوم.

الحداد: ولكن ماذا تفعلون اذا عادت الحكومة وأقفلت الأهالى ثانيا؟

فرح: نحن محاربون، فاقفال «الأهالى» أفضل جداً من أن تحيد شعره عن خطها، والهلاك فى الحرب أفضل من التسليم.

الحداد: لكن ماذا تفعلون وهى مقفلة.

فرح: نفعل ما يفعله الجيش اذا تحصن عدوه من جهة، فنأتى إليه من جهة أخرى. نفعل ما يسمونه فى الفنون الحربية حركة التفاف.

الحداد: كيف؟

فرح: نكتب كتبا وكراريس، ونؤلف روايات تمثيلية عن سكان جزيرة واق الواق والشعب ذكى يفهم» (١٩).

وعادت الأهالى للصدور، ونشر فرح فى صدرها مقالا بعنوان «بين الأقفال والفتح»

---

(١٧) الأهالى ٢٦ / ١ / ١٩٢١

(١٨) الأهالى ٢٧ / ١ / ١٩٢١

(١٩) لمزيد من التفاصيل راجع: د. رفعت السعيد ـ نقولا حداد ـ دار الثقافة الجديدة (١٩٧٢) ص٥٩

قال فيه «قضى على الأهالى بالسكوت ستة أشهر مكرهة مضطرة فسكتت مرة، ثم رأينا ان نجرب هواء الحرية الجديد، ونبلو ريح الاستقلال التى كانت تتمخض به الأيام فأحللنا جريدة المحروسة محل الأهالى نحو شهر.. إلا أن المحروسة أسكتت كما أسكتت الأهالى من قبل، وكان اسكاتها على وجه التقريب ليلة تشكيل الوزارة الجديدة وزارة الحرية والاستقلال، فعلمنا يومئذ حقيقة الجو الذى يريدون خلقه ومعنى الريح الجديدة التى سيجعلونها تهب على الناس.

.. والآن نحن مضطرون أن نجرب تجربة جديدة، لأن وظيفتنا أن نعمل ونكتب وننشر ما توحيه إلينا ضمائرنا وذممنا. فأن كان فى نظام الوزارة الجديدة ما يبيح لنا العمل والحياة كسائر الناس أخذنا حقنا ونصيبنا من العمل والحياة من غير أن نحيد قيد أنملة عما توحى به إلينا ذممنا وضمائرنا.. وأما اذا كانت الحياة فى مصر مباحة لفريق من الناس دون فريق، فلا عدل، ولا حق، ولا أمن، ولا حرية، إلا اذا وافقت هذه الأمور أغراض الحكام أو أهواءهم، أن كان ذلك قد أصبح كذلك.

فياموت زر أن الحياة ذميمة

ويا نفس جدى أن دهرك هازل»

.. ولم يصدر من الأهالى سوى عددين وأغلقت فى اليوم الثالث. لكنها لم تكن نهاية الأهالى وحدها فالرومانسى المحتدم حماسا كان مريضا مرضا شديدا، لكنه ابى أن يستسلم للمرض فحملوه بناء على الحاحه إلى إدارة الجريدة حيث حرر مواد العددين الأول والثانى وعاد بعدها إلى البيت محمولا على أثر أغماءه.. ولم يخرج بعدها الا إلى القبر.

ويروى نقولا حداد «لقد حاولنا منعه من الذهاب إلى الأهالى لكنه أصر قائلا: لابد من عودتى للعمل ولا بأس من أن أموت فى دار الأهالى» (٢٠).

لكن فرحا لم يكتف بالكتابة فى الصحف فعندما حاصره العدو قام بحركة التفاف.. وكتب روايات و«الشعب ذكى يفهم».

وفى الفترة ما بين أغلاق صحف الحزب الوطنى وهجرة قيادته، وبين اشتعال الثورة

(٢٠) نقولا حداد ـ بحث تحليلى ـ ملحق مجلة السيدات والرجال ـ المرجع السابق ـ ص١٣٦

وصدور جريدة الأهالى كانت هناك سنوات قاتمة، وكان الحماية البريطانية تفرض سطوتها الغاشمة، فى هذه الفترة انغمس فرح أنطون فى كتابة المسرحيات.

.. وكان بعضها جيد، وبعضها تجارى يخضع لمتطلبات أصحاب الفرق.. وتعرض فى ذلك الحين لانتقادات مريرة «فلقد أسرف بعض الاسراف فى هوى النفس، فراح ينقاد لضرورات المسرح ليرضى منيرة والوسط المحيط بمنيرة المهدية، وما كنت تسمع من أفواه الأدباء والعارفين لفضل فرح الا التأسفات ومر الانتقادات» [٢١].

وربما رأى البعض «أن الحاجة قد حولته عن مجراه إلى مسرحى سطحى يكتب ليعيش» [٢٢].. أما عباس محمود العقاد، فقد حاول أنصاف الرجل بدرجة محدودة فقال «كان فرح أنطون كاتبا على استعداد للرواية الفضلى، وكانت ملكته القاصة تظهر أحيانا فى مقالته الأدبية والسياسية، كما تظهر فى رواياته وحكاياته، وقد مال به هذا الاستعداد إلى وضع الروايات، فأحسن وأرتفع فى روايته «أورشليم الجديدة» ثم تقلبت به الظروف وألمت به محن، وطلب إليه وهو بين اليأس والرجاء، أن يترجم أو يكتب للمسرح فلبى، وبدأ بداية حسنة ولكنه لم يحقق بغيته فكان عثارة أكثر من صوابه» [٢٣].

.. لكن بعض النقاد استطاع أن يكتشف الحقيقة، وأن يمسك بالخيط الصحيح فكتب أحدهم يقول «لقد تشبه بكتاب الفرنجة والروس فجعل ما صنفه من الروايات وسيلة لبث آرائه الاجتماعية، فغلبت عليه الخطب والمواعظ والمجادلات، فضعفت فى قصصه الميزة الأدبية والفنية» [٢٤].

.. ونعود فنذكر بكلمات فرح أنطون «نلجأ إلى حركة التفاف، نكتب كتبا وكراريس ونؤلف روايات، نصنع روايات تمثيلية عن سكان جزيرة واق الواق.. والشعب ذكى يفهم».

---

(٢١) أحمد أبوالخضر منسى ـ المرجع السابق ـ ص٣٧
(٢٢) مارون عبود ـ المرجع السابق ـ ص ٢٠
(٢٣) عباس محمود العقاد ـ مطالعات فى الكتب والحياة ـ ص٦٩
(٢٤) سلسلة مناهل الأدب العربى ـ فرح أنطون ـ مكتبة صادر ـ المرجع السابق ـ ص ٧

ج.فرح المفكر..

ولقد بدأ تألق فرح فى السماء المصرية فى مجالات العلم والفكر والفلسفة.. قبل الكتابة الصحفية والأدبية، والحقيقة أن فرح أنطون قد غاص فى بحر المعرفة الموسوعية فقرأ كثيراً وخاصة «لروسو، ورينان، وفولتير، وكانت، وداروين، ونيتشه، وكارل ماركس، وتولستوى، وابن رشد، وابن طفيل، والغزالى، وعمر الخيام وغيرهم» (٢٥)

ومن هذه المعرفة الموسوعية استطاع أن يكون فى كتاباته منارة لجيل المثقفين المصريين الذى تطلع فى مطلع القرن العشرين إلى المعرفة الحديثة. ويعلق أحدهم على كتابات فرح أنطون فى مجال الفكر والفلسفة قائلا «لقد كانت جديرة بأن تكتب بماء الذهب» (٢٦).

أما سلامة موسى فقد قال أن أثر كتابات فرح فى نفسه «كان شبيها بذلك الأثر الذى يتركه دين جديد فى قلب حديث الإيمان».

والحقيقة أن فرح أنطون كان وقد أطلع سريعا وفى نهم على فلسفات عديدة ومتناقضة، يقف منها موقف المأخوذ والمتفهم والناقد فى آن واحد بما جعل أحدهم يقول عنه «كان يتمزق بين فلسفات عديدة، كان مؤمنا وغير متدين، مسيحيا ولايصلى، لم نره يوما فى كنيسة، وما سمعنا أنه حضر قداسا، على أن هذا لايمنع أن يكون مسيحياً مخلصا» (٢٧).

ويقول آخر: «لقد كان فرح أول من عرف العرب بالفيلسوف الألمانى نيتشه، وأول من عرفهم أيضا بأفكار المعلم كارل ماركس» (٢٨).

.. وما أبعد الفارق بين ماركس ونيتشه.

لكنها هى حياة فرح.. هكذا كانت، فبينما كان يصارع مع أفكار نيتشه محاولا استيعابها وتضمينها فى روايته «العالم الجديد أو مريم المجدلية» حيث يقف شيشيرون ليلقى عبر الرواية خطبا مستوحاه من فكر نيتشه فى تحقير الضعف واحتقار الرحمة وتعظيم القوة فاذا به ـ وكأنه يستشعر خطأ ما يكتب ـ يتوقف عن نشر بقية الرواية، ثم يسرع إلى

---

(٢٥) مارون عبود ـ المرجع السابق ـ ص٧

(٢٦) لطفى جمعه ـ خطاب التأبين ـ المرجع السابق ـ ص ٢٤

(٢٧) محمود إبراهيم ـ مقال ـ ملحق مجلة السيدات والرجال ـ المرجع السابق ـ ص ٢٨

(٢٨) مارون عبود ـ المرجع السابق ـ ص٢٤

نشر بديل لها.. هو رواية ملفا لمكسيم جوركى.

ويعلق أحدهم على ذلك قائلا «وهكذا التقى الصيف والشتاء على سطح واحد» (٢٩)

والآن.. هل لنا أن نتوقف عند المرساه التى ألقى قارب فرح أنطون المتقلب بين أمواج عده.. بشراعه نحوها؟ نود أن نسجل أولا أن فرح كان مفكراً وصحفيا فى آن واحد، بمعنى أن الصحفى كان ينتزع المفكر من تأملاته مستحثا أياه كى يكتب ويكتب كل يوم.. حتى ولو نقل أفكاراً لم تلتصق بذهنه ولم يتقبلها وعيه.

فبعد أن ينشر طويلا وكثيرا عن نيتشه وفلسفته ومواقفه، ويواصل النشر عبر فصول طويلة لراويته «العالم الجديد أو مريم المجدلية» فاذا به يتوقف ليثبت رأية فى بيتين من الشعر لعله يتبرأ فيهما مما كتب.

هذا كلام نيتش أن نيتش كان مقوم المعوج والمنآد.

فى زعم بعض الناس اما مذهبى فيه، فأبقية إلى ميعاد.

ولعل فرح قد تأثر فى بداية حياته تأثرا كبيراً بالفيلسوف الفرنسى «رينان وكان يتباهى دوما بأن رينان لم ينحز لفكره، أو لحزب ما، أو لمذهب ما «ذلك أن رينان عاش ومات بين الأحزاب فلم يكن منسوبا لاحدها ولو سئل رينان فى حياته ما هو حزبك؟ لأجاب ولاشك.. حزبى البشر كلهم، لأنى أخ لهم جميعا لا لفريق منهم، ولهذا فأنك ترى فى أفكار رينان كثيرا من التناقض فأنه يعيش للملكى والجمهورى، والجاحد والمؤمن، والقديم والحديث، والمتعصب والمتساهل، ذلك أن فكرة واسع رحب يستطيع فهم كل ما فى تلك المتناقضات من الجمال والحقائق، فيذكر محاسنها ومساوءها معا باستقلال تام، وأنصاف كامل كأنه واقف أمام الدينونة الأخيرة» (٣٠).

.. ويعود فيؤكد على هذا التساهل الفكرى عند رينان ثم يقرر: «وهذا معنى قولنا عنه فى صدر الكلام أنه مثال الفيلسوف الكامل» (٣١).

ولعل هذا يوضح لنا سر الارتباك الذى ساد كتابات فرح فى السنوات الأولى من حياته

---

(٢٩) مارون عبود ـ المرجع السابق ـ ص٣١

(٣٠) فرح أنطون ـ مقال ـ الروايات ونفعها لنا. نقلا عن مناهل الأدب العربى ـ المرجع السابق ـ ص٦٨

(٣١) الجامعة ـ السنة الرابعة (١٩٠٣) ـ الجزء ٦، ٧، ٨ ـ ص٣٠٢

الفكرية، لكن الخط لم يلبث أن استقام، فرجل كفرح لايعرف غير الاستقامة ومن ثم فأنه لايلبث أن ينتقد مسلكه السابق.

«أن كثرة الكتاب فى الشرق، وتعدد الآراء وتنوع اللغات، والترتيبات، قد جمعت فى كتبه ومجلاته وجرائده جميع الأراء الفلسفية ومذاهب الأدب الكتابى، وقد اجتمعت متناقضة متضاربة وأصبحت خليطا من جميع المذاهب فنرى فيها مذاهب سبنسر وداروين وماركس والقديس توما وأفلاطون وابيقور وفلاسفة الاسكندرية وشوبنهور ونيتشة وزولا وكل هذه المذاهب المختلفة نراها فيه متجاورة مشتبكة اشتباك الأسل، وعله هذا الاختلاط والاختباط هو عدم وضوح المبادئ بعد لابناء الشرق، للاجتماع حول كل منها أحزابا كل حزب يعرف أصل مبدأه وفروعه ويجعل خطه الدفاع عنه وعنها لموافقتها مزاجه واخلاقه وآرائه.. ذلك أن الخلط بين المبادئ دليل على الجهل بها، والجهل بها دليل على انحطاط العلم عندنا، كونه لايزال فى طفولته»[٣٢]

.. هكذا استقام السهم، وما أن استقام حتى عرف كيف يصل إلى مرماه..

●●●

ولكن.. بم نبدأ..؟؟

هل نبدأ بالشوك، فنسير فوقه عن عمد لنفتح أصعب صفحات الكتاب الصعب؟

لم لا.. فلنبدأ بالقضية الشائكة دوما. قضية الموقف من الدين.

ولكن وقبل أن نبدأ لم لا نسأل أنفسنا هذا السؤال المثير، لماذا حرص المفكرون الشوام – فى أغلبهم – على خوض غمار المناقشة الصعبة المراس فى مجال الدين رغم علمهم بحساسية هذا الموضوع عن المصريين. وخاصة المسلمين منهم، خصوصا وأنهم كانوا جميعا – ولعلها محض مصادفة – من المسيحيين؟.

ثمة إجابات عديدة على هذا السؤال الصعب.

جمال أحمد يقول «أن شميل وفرح أنطون قد تأثرا بالأفكار التى سادت فى أوروبا فى

(٣٢) فرح أنطون – مقال – الروايات ونفعها لنا – المرجع السابق

القرن الثامن عشر، فتزعما اتجاها علمانيا يتصور أن الدين يعيق العرب عن النهوض إلى مستوى الحضارة الغربية، وأن السبيل الوحيد للتقدم هو تخليص المجتمع من نفوذ الدين»(٣٣)

أما كامل عسلى فيقول «أن الأرساليات البروتستانتية والكنيسة المارونية التى مارست نفوذا كبيرا فى لبنان قد خلقت جوا من الأرهاب كى تحكم قبضتها على أتباعها، وقد أدى هذا بالمفكرين اللبنانيين إلى أن يشنوا هجمات عنيفة على التعصب والطائفية»(٣٤)

أما عباس محمود العقاد فيجيب على ذات السؤال «ولعل سائلا يسأل، لماذا التحدى البين للنفوذ الدينى خاصة من خواص النشأة السورية (يقصد بلاد الشام) فأقول لهذا المتسائل أننى كنت كذلك أعجب لهذا الأمر، واستغرب الغيظ الشديد الذى تتوهج به كتابات السوريين الأحرار حين يحملون على النفوذ الدينى فى بلادهم.. ثم يمضى قائلا «لأن رجال الدين هناك ربما كانوا أقوى الطوائف الدينية فى العالم وأوسع رعاه الكنائس اشرافا على حياة أتباعهم، فقد جمعوا بين الزعامة فى الدين والزعامة فى السياسة والزعامة فى العلم. وناهيك بهما من سطوه هائلة تغرى بالتحدى وتغرى بالمناجزة.. وكانت طائفة رجال الدين فى البلاد السورية ولاتزال معقد آمال الشعب فى الحرية، لما بينها وبين الحكومة الفرنسية والحكومات الأوروبية من صلة معروفة، وأنها كانت ولاتزال قائدة الأفكار، وقدوة المسترشدين لأنها منشئة المدارس وطابعة الكتب ومربية الصغار والكبار واذا اجتمعت لفئة هذه السطوة فغير عجيب ألا يرضى عنها وأن يتبرم بها فريق الشبان المتعطشين إلى المعرفة الحره، التواقين إلى الآراء المتجددة من أصحاب النفوس الأدبية والعقول الطليقة.. وغير عجيب أن يجعلوا تحديها شغلهم الشاغل فى كل ما يدرسون ويكتبون» (٣٥)

ونضيف إلى كل ماسبق أن هؤلاء المفكرون المتحررين قد وجدوا أنفسهم محاصرين

(33) G. Ahmed - The intellectual origins of Egyptian Natianalism. (oxford) 1960 - P41

(٣٤) كامل عسلى - الاتجاهات التقدمية فى الفكر العربى الحديث - رسالة دكتوراة، غير منشورة - ص٩٦٣

(٣٥) البلاغ - ٥ مارس ١٩٢٤ - مقال لعباس العقاد

بين سطوة النفوذ الدينى لرجال ديانتهم، وبين سطوة النفوذ العثمانى المتخذ ثيابا دينية هو الآخر. فوقعوا بكل أفكارهم وطموحاتهم بين فكى كساره البندق.

ويروى فرح أنطون بعضا من مأساته بين فكى كسارة البندق فى رسالة مفتوحة وجهها إلى والى بيروت السابق معلقا فيها على أحداث الفتنة الطائفية هناك.. يقول فرح فى رسالته «أن مجلة الجامعة نشرت فى جزئها الخامس رواية له عنوانها الوحش، الوحش أو سياحة فى أرز لبنان، وفى هذه الرواية فصل طويل بشأن الديور والرهبان وقد جاء فى الفصل أن الديور لانفع فيها اليوم للناس اذا لم تغير خطتها. فلما حدثت حادثة بيروت تألمنا وأخرنا ارسال الرواية إلى لبنان، لأنها لو وصلت ابان الحادثة لقوبلت بالسخط والضحك معا، وربما لانعدم هناك راهبا متحمسا يقف ويقول:

نفع الديور فى هذا الزمان ظاهر للعيان، فأنها تفتح أبوابها لألوف اللاجئين من بيروت فتأويهم وتغذيهم وتسكن قلوبهم» (٣٦)

وعن رينان يتعلم فرح احترام العقل والعلم.. والدين عنده لايخرج عن محورهما.. ويورد فرح فى ترجماته ما أسماه «صلاة رينان» التى يرفعها لآلهة العقل والحكمة مؤكدا لها أن كل ما سواها زائل «اذ لايمكن صنع شئ ثابت بغير القواعد التى وضعتها أنت يا ألهة العقل» لكنه يعود فيرثى لحاله موجها كلامه لذات الالهة «ثم أنك تعلمين كم صارت خدمتك صعبة فى الأرض، فان كل استقامة ذهبت منها».

ثم يؤكد رينان فى صلاته أن الديمقراطية والعدل هما السبيل الوحيد لسعادة البشر فيقول «أنت وحدك فتيه طاهرة نقية أيتها العذراء الجميلة، أنت وحدك قوية بآلهة النصر، أنت وحدك تحفظين المدن وتحرسينها، أن لك كل مايلزمك من القوة، ولكن لاغرض لك غير السلام، فيا واضعة الشرائع العادلة يا أيتها الديمقراطية التى مبدأها الأساسى أن كل خير هو آت من الشعب، وأن كل مكان ليس فيه شعب يوحى إلى النفوس عظائم القرائح فانه ليس فيه شئ، أيتها الآلهة علمينا كيف نستخرج الماس من الجموع الجاهلة».

(٣٦) كتاب مفتوح إلى عطو فتلو - رشيد بك وإلى بيروت قبلا ووالى بورصة الان - مجلة الجامعة - السنة الرابعة (١٩٠٣) الجزء ٦، ٧، ٨ المرجع السابق - ص٣٣٦

هكذا يكون الشعب طريقه الذى لاطريق سواه «أننى أؤمن بك أيتها الآلهة، ومتى كنت قويا بك فأننى أقاوم كل نصح يغرنى، أقاوم إرتيابى الذى يجعلنى أشك فى الشعب. أقاوم إضطراب فكرى الذى كلما وجد الحقيقة لايكتفى بها ويدفعنى إلى البحث عنها أيضا، أقاوم هوسى الذى يمنعنى من الرضى بحكم العقل حكما قاطعا.

أننى أفضل أن أكون الأخير فى منزلك على أن أكون الأول فى سواه».

وتتجسد الرومانسية الثورية فى ترانيم ينشدها فى محراب العقل والعدل والشعب «فاعلمى أننى سأوقف نفسى على خدمتك، واربط روحى فى هيكلك، سأنسى كل نظام غير نظامك، وأجعل غرفتى بجانب غرفتك، بل أعظم من ذلك أننى ساجعل نفسى اذا استطعت متحيزا إكراما لك، فلا أحب شيئا غيرك، أننى سأتعلم لغتك وأنسى كل لغة سواها، سأكون ظالما لكل شئ لايتعلق بك، سأجعل نفسى أحقر خادم لأحقر أبنائك، سأمدح سكان أرضك وأحب فيهم كل شئ حتى عيوبهم».

لكن كل الحقائق نسبية الا شئ واحد هو الايمان بالشعب.

«أحلام كل الحكماء فيها شئ من الحقيقة، وكل شئ فى هذه الأرض ليس الا رمزا وحلما، فان الألهة تذهب وتمر كالناس، وليس يحسن أن تبقى أبدية، والايمان الذى كان للانسان لايجب أن يكون له قيدا».

.. ولكنه يمضى ليؤكد «لا دموع حقيقية إلا دموع الشعب» (٣٧)

ولكن فرح لايكتفى بتقديم «صلاة رينان» فان له صلواته الخاصة، صلاته الأولى أوردها فى مقدمة روايته «أورشليم الجديدة» فهو يوجه حديث إلى «المسيحية» التى يرمز إليها «بالحسناء المريضة» فيقول:

«وأسفاه، عاد الغالب إلى عادات المغلوب. ان المادة قويت على الروح.. والمصالح على المبادئ، والتقليد على الفكر والعقل، فهاتوا لنا معولا آخر للهدم مرة ثانية. إلينا يا ملائكة السماء بجراح جديد لمداواة هذه الحسناء المريضة، ولكن رحماكم، فلتكن سكين هذا الجراح نحيفة، أننا نشفق على جسمها النحيل وقلبها الرقيق وجمالها الساحر ونفوس

(٣٧) راجع النص الكامل فى مجلة الجامعة - السنة الرابعة (١٩٠٣) العدد ٨،٧،٦ المرجع السابق ص٣٠٦ وما بعدها.

الملايين المتعلقة بها».

فالمسيحية بحاجة إلى مدد فكرى وفلسفى جديد..

«هات روحك يابوذا لتعلمها الصبر والقناعة، هات فكرك ياكونفو شيوس لتعلمها الحكمة، هات بلاغتك الالهية يا أفلاطون لتدخل إلى عروقها دم الفلسفة ممزوجة بالأنوار السماوية، هات عقلك يا أرسطو لتقوية عقلها، هاتوا يا حكماء ممفيس والاسكندرية وأثينا وروما كل حكمتكم وفلسفتكم لعلها تشفى.. واياكم أن تقولوا أنها فى غنى عن كل ذلك بما لديها من المبادئ الساذجة، فانها نسيت مالديها، ونسيت الفطرة والسذاجة. نعم أن فاها لايزال يردده ويترنم بألفاظه، ولكن يالالاسف أن قلبها لم يعد يفهمه ولايقتنع به. ولذلك ذهبت منها صحتها وجمالها»(٣٨)

واذا كان حال المسيحية قد وصل عنده إلى هذه الحالة فان ثمة جديد..

«أن الشعب الحديث الخارج من رمال بلاد العرب قد استولى على ذلك الفكر الذى هجرتيه وهجم عليك بسلاحك بريئاً فى أول نشأته من تلك النقائص التى أودت بك، لقد زحف ممثل الوحدة والعصبية والاصلاحات الشعبية والحياة الروحية والمعيشية الطبيعية والمساواة والاخاء والحرية، ومن فرط ثقته بنفسه وبمبدئه يظن أنه وحده سيمثل الوحدانية - وبهذه المناقب سيستولى على الكرة الأرضية».

لكنه وبعد أن يمتدح الإسلام يعود فيرتد إلى موقفه السابق «وسيبقى هذا الملك حتى تفارقه تلك المناقب كما فارقتك فيصنيبه ما أصابك».

ثم يحبس الجميع مسلمين ومسيحيين أنفاسهم وهم يقرأن العبارات التالية «وفى ذلك الوقت تنطرحان كلاكما على الأرض أخوين فى المصاب تنظران إلى الأمم والمبادئ الأخرى التى تجئ بعدكم».

لكنه بعد ذلك يدعو الجميع.. من كل الأمم الى أن ينشدوا معا «المجد لله فى الأعالى. لأن الله خالقنا عظيم».

(٣٨) فرح أنطون - أورشليم الجديدة أو فتح العرب بيت المقدس، والرجل المريض والإسرائيلية الجميلة فيها ـ الاسكندرية فبراير ١٩٠٤ ص٢

ويتوجه فرح أنطون فى احترام شديد إلى رجال الاكليروس قائلا «يا أساتذتى الأعزاء.. الذين مات أكثرهم الآن انى أراكم أحيانا فى أحلامى، ولكننى أراكم كتذكار حلو عندى.. فأننى لم أخنكم بقدر ماتظنون، نعم قلت أن تاريخكم غير كاف، وفلسفتكم أضعف من الفلسفة التى تعلمنا أن لانقبل شيئا خاصا وراء الطبيعة، ومع ذلك فلا أزال تلميذا لكم، فأننى مثلكم أعتقد أن الحياة لاقدر لها ولاقيمة الا بصرفها فى الاخلاص والحقيقة والخير. ألا أنكم تفسرون هذا الخير تفسيرا ضيقا وتجعلون هذه الحقيقة مادية مجسمة، وأن كنتم مصيبين من حيث أساس الموضوع» (٣٩)

.. هذه العلاقة الشديدة التعقيد بين فرح وبين الدين يعود فيفسرها تفسيراً أكثر تعقيداً فى كتابه «أوراق منشورة» فيقول «أن نفسى ستسكن بعد وفاتى فى خرائب كنيسة القديس ميخائيل، بشكل طائر البحر الأبيض، وسيبقى هذا الطائر حائما فى الليل حول أبواب الكنيسة ونوافذها تائها عن المدخل شاكيا متألما، وهكذا تبقى نفسى المسكينة حائمة متألمة حول هذه الأكمة إلى الابد».

.. ويعود فرح ليفتش فى كتابات عمر الخيام ويستخلص منها عبارة ملفته للنظر «ليست الهياكل والكعبة سوى أماكن للعبادة وما أصوات الأجراس الا تسبيح بحمد القادر على كل شئ.. وكذلك محراب الجامع والكنيسة والهيكل والصليب، كلها ليست فى الحقيقة الا أشكال مختلفة لحمد الله وعبادته» (٤٠)

ويخوض فرح معركة فصل الدين عن الدولة.. وعن التعليم

«ذلك أن الدين علاقة بين المخلوق والخالق، فالمسيحى حر فى أن يعبد الله كما يشاء، وليس من حق الدولة أن تتداخل فى شئ من ذلك».. وفى التعليم يجب وضع الدين جانبا.. «أما الدروس الدينية والمبادئ الدينية فتدرس فى المعابد والمنازل» (٤١)

وهو يدافع عن حرية العقل والفكر بلا قيد «لايجوز للناس أن يمنعوا العقل البشرى من الانطلاق فى جو الفكر لطلب الحقيقة والعلم والنور بالالآت العقلية التى منحهم الله

---

(٣٩) المرجع السابق

(٤٠) مناهل الأدب العربى - المرجع السابق - ص٣٥

(٤١) كتاب مفتوح إلى عطو فتلو رشيد بك - المرجع السابق ص٣٣٥

اياها دون تضييق على هذه الآلات وايقافها فى مجراها».

.. ومن هذا المنطلق يقترب فرح فى انبهار شديد من فكر ابن رشد، ويتمسك بالجانب المادي ويتحدث عنها مطولا.. وينقل عن ابن رشد عبارات تثير فى نفوس المؤمنين حرجا بالغا.. فهو ينقل ملاحظاته عن الخلود والبعث فيقول «أن الخلود للانسانية أى للعقل الفاعل العام أما العقل الخاص المنفعل فان من صفاته الفناء. وبناء عليه يكون العقل العام الفاعل (الانسانية) خالدا، والعقل المنفعل الخاص (الانسان) فانيا، وبناء على ذلك لايكون بعد الموت حياة فردية» (٤٢)

إلى هنا وتثور الناس ثورة عارمة ضده، خاصة وأنه فى ختام حديثه تهرب من الاجابة عن مدى صواب أو خطأ هذه الأفكار وقال أننا نجد «فى بناء كل واحد من الفلاسفة رملا وصخرا أى ضعفا وقوة».

.. واستعر الجدل، ولم يكن فرح من ذلك النوع الذى يتراجع أمام ضغط، وتصدى له الإمام محمد عبده وثار بينهما جدل عنيف برغم أن فرح أنطون كان يسجل دوما إعجابه بالشيخ محمد عبده «فاننا نطالع بامعان لامزيد عليه كل ما تنشره، رصيفتنا مجلة المنار الغراء من الدروس التى يلقيها فضيلة الأستاذ محمد عبده مفتى الديار المصرية فى الجامع الأزهر تفسيراً للقرآن، فنجد فى كل صفحة من صفحاتها روحاً جديداً اذا تم انتشاره كان بمنزلة اصلاح عظيم فى العالم الإسلامى» (٤٣) .

واحتدم الجدل بين عملاقين، وحاول البعض أن ينحرف به إلى جدال بين مسلم ومسيحى ويكتب حافظ إبراهيم بينا من الشعر يؤيد به الإمام يقول فيه:

وأنت لها إن قام فى الغرب مرجف

وأنت لها إن قام فى الشرق مرجف

ويغضب فرح ويكتب إلى حافظ معاتبا «حافظ» يا حافظ، أنت لم تحاسب نفسك لما

(٤٢) مناهل الأدب العربى - المرجع السابق - ص٦٩

(٤٣) المرجع السابق

نظمت هذا البيت» (٤٤)

.. وخوفا من تحول الأمر إلى فتنة اتفق الرجلان على ايقاف جدل كان بذاته جدل عقلى وعلمى..

وبرغم ذلك كله..

وبرغم أنه قد تهكم كثيرا على رجال الدين المسيحى..

وبرغم أنه يقول فى روايته «الوحش، الوحش، الوحش» «ان تاجرا قد تقدم بشهادة إلى السيد كلون فرد عليه كلون «هل تريد أن أجعل أحد خدامى يجلب لك مثلها العديد، ومن بينها شهادة رئيس دينى كبير مقابل عشرة ريالات فقط» (٤٥)

برغم ذلك كله فقد تقدم أحد رجال الدين المسيحى هو الارشمندريت ايصائيا عبود (دير مار جرجس الحصن) ليرثيه عند وفاته قائلا:

«ايه، ايه يا فرح، أنت ما مت، أنت مشيت إلى الخلود، على ضوء يراعك.

كفروا، كفر الأولى مادعوك رسولا، وجهاد الرسولية يعبق من شق قلمك، أن لفى كتبك وبين تضاعيف سطورك تلمع أمضى السيوف نصالا وانتصاراً ودفاعاً.

كم سكبت من روحك؟ من ضوء عينيك؟ من دم فؤادك؟ أنك لمن على درجات التضحية حملت كلمة البشارة إلى بنى جلدتك.

بيمينك حبكت اكليلك الخالد.

بريشتك الساحرة طرزت ثياب العرس فادخل إلى فرح ربك»

.. ويحق لنا أن نزداد دهشة.

د. الرومانسى اشتراكيا

قدم الرومانسى الثائر صلوات عديدة، لعل أجملها وأكثرها رقة وعذوبة صلاته الشهيرة أمام شلالات نياجرا والتى رتلها أثناء وجوده فى أمريكا، تلك الصلاة التى وصفها

(٤٤) المرجع السابق

(٤٥) المرجع السابق - ص٣

(٤٦) ملحق السيدات والرجال

أحد الصحفيين بأنها «من أجمل وأنفع ما كتب فى العالم بآية لغة من اللغات» (٤٧)

وقف فرح أنطون خاشعا أمام الشلالات الجبارة ليقول:

«أتذكر أيها الشلال يوم كان شاطئك مرتعا لاولئك الهنود المساكين قبل أن يصل إليك البعض ويغتصبوا أرضهم هذه ظلما وعدوانا».

ثم مضى سريعا ليتحدث عن عملية التحويل الرأسمالى التى غيرت وجه أمريكا «قد غيروا أرضك ومن عليها أيها الشيخ، وهم يظنون أنهم حسنوها وحسنوك، وجملوها وجملوك، وما جمالهم الا كجمال المرأة الدميمة زخرف خارجي، وطلاء سطحى، حك هذا الطلاء قليلا فتجد تحته جيفة منتنه».

بل انه يؤكد أن الوحوش الضارية التى كانت ترتع فى الماضى على ضفاف الشلال اشد رحمة وأقل وحشية من وحوش الرأسمالية «فان الأمم تتعادى وتتسلح تأهبا لاقتتال أفظع من اقتتال الذئاب، والشعوب يأكل فى داخلها كبيرها صغيرها، وقويها ضعيفها كما تفعل أسماكك».

«فروكفلر يملك من المال ألف مليون، بينما ملايين البشر يستعطون الخبز ولايجدونه، وهو يستخدمهم بأجور تافهة لزيادة ثروته الملطخة بدمائهم وعرقهم، وهم يسكتون ويعملون لانهم مضطرون، والسلطة فى الأرض ضعفت وكادت تنحل فان الناس أسقطوا العروش والملوك، ولكنهم أقاموا مكانها ملوكا لكل واحد منهم ملايين من الرؤوس، فقويت بذلك سلطة المشعوذين والدجالين والجهلاء الناصحين، الذين يتملقون الشعوب ويضلونها، كما كان أخصاء الملوك يتملقونهم ويضلونهم، والأفراد يتخاصمون ويتعادون، ويفترس بعضهم بعضا بأيديهم وألسنتهم وأقلامهم، تنازعا على الرزق والسيادة.. وقبح هذا الرزق وهذه السيادة. اذا كان لايبلغ إليهما الا بالرجوع إلى وحشية وهمجية أشد من الوحشية والهمجية الأولى.. فاذا كان كل هذا هكذا أيها الشلال، فأين الارتقاء الذى يزعمونه وما فائدتك فى استبدال ذئابك القديمة بهذه الذئاب الجديدة التى لها طباع تلك» (٤٨)

---

(٤٧) لطفى جمعه – خطابة فى حفل التأبين – المرجع السابق – ص٢٢

(٤٨) مناهل الأدب العربى – المرجع السابق ص٤٢

ومنذ اليوم الأول من القرن العشرين يقف الرومانسى ليرتل للقرن الجديد ترانيم تتحدث عن الاشتراكية فى اليوم الأول من الشهر الأول من القرن العشرين.. يكتب فرح أنطون فى مجلته «الجامعة»:

.. «يصدر هذا الجزء من الجامعة يوم انتهاء القرن التاسع عشر، ودخول القرن العشرين، فوداعا أيها القرن الراحل، وسلاما ايها القرن القادم» لكن كل كاتب يختار زواية يرحب من خلالها بالقرن القادم، فماذا إختار فرح انطون؟

.. «لنر هذا القرن على لهيب الثورة الفرنسية، ومدافع نابليون يدوى صداها فى الجهات الأربع.. ولقد كان من تأثير هذه الثورة أنها وضعت أساس الحرية فى العالم على أسس ثابته لاتتزعزع، وفتحت عيون الأمم فى الشرق والغرب، فكأن تلك الشعلة التى أحرقت فرنسا حينا من الزمان قد أنارت الدنيا بأسرها».

لكن الثورة البرجوازية.. ليست كافية ولهذا فأنه «لاريب أن عمل القرن التاسع عشر من هذا القبيل ناقص نقصا عظيما، ولكن هذا القرن عمل كل ما كان يستطيع عمله. واذا لم يكن له من فضل غير المناداة بالحرية والمساواة للافراد والشعوب لكفاه ذلك فضلا عن القرون الخالية، لكنه لم يناد بذلك فقط بل أعطى الأفراد والشعوب قوة توصلهم إلى أغراضهم اذا راعوا النواميس الطبيعية وابتغوها بلا أفراط ولاتفريط».

لكن فرح لايستطيع أن يكتفى بذلك، فثمة فضل آخر للقرن الراحل.. «ذلك أنه من أعمال القرن التاسع عشر الاجتماعية استفحال أمر الاشتراكيين استفحالا نفع المبادئ الديمقراطية وأفاد ضعفاء الأمم، افادة تذكر لهم بالشكر.. وتفصيل ذلك يطول ايراده فنكتفى بهذا البيان الوجيز» (٤٩)

وحتى قبل بداية القرن، كان الأمر واضحا بالنسبة لفرح أنطون، وكان موقفه من النظام الرأسمالى، بل والعالم الرأسمالى ككل واضحا أيضا.

ففى ١٣ نوفمبر ١٨٩٩، حدث كسوف فى الشمس أثار هواجس الناس بقرب نهاية العالم، وينتهزها فرح أنطون فرصة لينادى بنهاية العالم قائم وقيام عالم جديد.

(٤٩) الجامعة - السنة الأولى - الجزء العشرون - ١ - ١ - ١٩٠٠ مقال القرن العشرين وماذا عمل القرن التاسع عشر ص ٤٥٧

«متى ينتهى «هذا العالم».. يسألون متى ينتهى هذا العالم؟ ونحن نقول لهم متى ينتهى، سوف ينتهى عندما تنفق الحكومات ماندفعه إليها من الضرائب والرسوم على الأمور الضرورية من تعليم الشعوب وانقاذها من آفة الجهل الهائلة، لا على البذخ والأمور الكمالية، يومئذ ينتهى عالم الجهل والشقاء والفقر والرذائل والأوهام ويقوم عالم ثان تنيره شمس الفضيلة الباهرة والأدب الغض والعلم الصحيح، والا فسواء موتنا وحياتنا فى العالم الحاضر، وسواء خرابة وعمارة، اذا بقى على ما هو عليه الآن» (٥٠)

والحرية.. مطلب هام عند فرح أنطون، تمسك بها دوما، وناضل دفاعا عنها فى كل حين.

.. «وعندنا أن أولى حاجات الكاتب الجرأة والحرية، ونريد بذلك حرية الفكر والنشر، وتحت الحرية، تدخل فضائل كثيرة، فانه متى كتب الكاتب بحرية وإستقلال فكر، فانه يكون صادقاً عادلا منصفاً، ويشترط أن تكون الحرية مطلقة فى أقواله لا أن يتكلم بحرية فى هذا الموضوع لأن الحرية موافقة لمصلحته، ويداهن ويصانع فى ذلك الموضوع لأن الحرية فيه مخالفة لمصلحته» (٥١)

وهو ينشر ترجمة لوثيقة حقوق الانسان الفرنسية مؤكدا.. «حقوق الانسان لايجوز أن يدوسها انسان» (٥٢).

ويخوض فرح معركة من أجل مجانية التعليم والزاميته، مؤكدا أن ذلك ضرورى لنهضة الوطن وخطوة أولى نحو نشر المعرفة «فالمعرفة تجلو عن النفس غياهب الجهل، وتعلمها كل فضيلة، وتدنيها من أبواب السماء. المعرفة عدوة الظلمة وصديقة النور، عدوه التوحش وصديقه التمدن، عدوه الضلال وصديقة الحقيقة، عدوة الرذيلة وصديقة الفضيلة.. هذه هى المعرفة التى نعنيها» (٥٣)

.. ويدافع فرح عن حقوق المرأة وحريتها.. وينشر على صفحات الجامعة تلخيصا وافيا لكتاب المرأة الجديدة لقاسم أمين معلنا تأييده للكتاب ولما فيه من أفكار (٥٤)

---

(٥٠) الجامعة – السنة الأولى – الجزء السابع عشر ١٥ – ١١ – ١٨٩٩ – ص٣٨٢

(٥١) الجامعة – السنة الرابعة – الجزء الرابع – يونيو ١٩٠٣ – مقال: الكاتب الشرقى وحاجاته – ص٢٣٠

(٥٢) الجامعة – السنة الثالثة – الجزء الرابع – نوفمبر ١٩٠١ – ص ٢٥٠

(٥٣) مناهل الأدب العربى – المرجع السابق – ص٣٥

(٥٤) الجامعة – السنة الثانية – الجزء العاشر – ص٦٢٦

ويعرف فرح أى طريق يقترب منه، ويعرف أنه طريق صعب وملئ بالشوك، ويعرف أن الدفاع عن الاشتراكية يتطلب تضحيات ويقول «ليست كل نظرية جميلة يود الناس أن ينفذوها، ولهذا فقبل تحبيب الجمهور فى المبادئ الديمقراطية والاشتراكية يجب الاستعداد للجهاد فى مقاومة الاستبداد والاستعباد وتأييد الحرب، بالقوة» (٥٥).. نعم بالقوة.

ولا بأس من ذلك فان فرح يعتقد «أن فى كل قوم أو شعب أو أمة أفرادا مخلوقين لكى يضحوا بمصالحهم الشخصية وبملذاتهم النفسانية، وأخيرا بحياتهم لاجل مصلحة شعبهم.. والأمة تكون قوية أو ضعيفة بقدر ما فيها من هؤلاء الذين خلقوا ولا لذه لهم الا هذه اللذة، لذة تضحية الفرد لأجل الجماعة» (٥٦)

ولهذا فان فرحا يشمر ساعديه ليبدأ هجوما شديدا على الأغنياء.

«تراهم يركضون، ويجدون، ويجمعون المال أكداسا إلى أكداس فتخالهم صاعدين مرتقين والحقيقة أنهم مازالوا يدورون ضمن تلك الدائرة، ويزيدهم الغنى انحطاطا».

ويتحدث عن الغنى فيقول: «ما قولك فى رجل بليد جاهل لايعرف من الدنيا شيئا غير جمع المال بالطرق المحللة والمحرمة، وهمه فى غش الناس للربح منهم، جسمه كجسم الثور غلاظة وضخامة، وعقله كعقل عصفور، وكل أفكاره متجهة إلى جهة واحدة هى التغلب على غيره بكل الطرق فعنده الغش والاحتيال والسرقة وتعمد ضرر الغير وخرق حرمة كل نظام وكل شريعة يعرفها ويعرف أنها لا توقعه تحت طائلة الشريعة، والاستئار بكل شئ والاستخفاف بكل شئ فى الأرض والسماء، إذ لاقيمة لشئ عنده غير المال» (٥٧)

وهو يعلق على ديوان لمصطفى صادق الرافعى ويتوقف أمام أبيات تقول:

أرى الانسان يطغى حين يغنى
وما أدنى الهبوط من الصعود
أليس من التغابن وهو ظلم
جزاء السعى يكتب للقعود

---

(٥٥) ملحق مجلة السيدات والرجال - المرجع السابق ص١٣١
(٥٦) المرجع السابق - ص٩٩
(٥٧) لمزيد ن التفاصيل راجع: د. رفعت السعيد - ثلاثة لبنانيين فى القاهرة - دار الطليعة بيروت ١٩٧٣

ويعلق على البيت الأخير قائلا «هذا البيت الأخير يعدل وحده ديوانا كاملا، فانه عبارة عن خلاصة الانتقاد الذى يوجهه بعض العلماء والفلاسفة إلى أغنيائهم الذين يغتنون وهم قعود فى مجالسهم ـ دون عمل يعملونه ـ بتعب عشرات ومئات وألوف من البشر المستخدمين عندهم» (٥٨)

.. أما كيف نقاوم ذلك، فان فرح واضح أيضا «أن جمعيات العملة فى الزراعة والتجارة والصناعة هى التى تسوق اليوم السياسة والساسة فى سبيل الارتقاء، تسوقهم بقضيب من حديد» (٥٩)

ومنذ وقت مبكر يكتشف فرح أنطون آفات المجتمع الرأسمالى «للتمدن الحالى آفات، كما أن له حسنات، ومن هذه الآفات تمكن بعض البشر من دوس القانون استنادا إلى القانون، وقتل حقوق الانسان استنادا إلى مبدأ حقوق الانسان. ومن هذا القبيل حالات الغنى الطائلة فى أمريكا.. ان الغنى الطائل يوشك أن يكون خطرا داهما على الهيئة الاجتماعية.. أنه خطر الاحتكار، فانه قد نشأت فى تلك البلاد صناعة جديدة مدارها تأليف شركات إحتكار البضائع والسلع ومواد المعيشة، فشركة تحتكر الفولاذ، وواحدة تحتكر السكر وأخرى تحتكر البن.. وهذا الاحتكار لايستوجب إذنا من الحكومة ولارضى من أرباب الصناعة، ولا موافقة من الأهالى بل يتم بالرغم عنهم جميعا. أن ما يربحه الأغنياء فى البورصة من الأرباح الفاحشة بلا تعب ولانصب مبنى أكثره على غش الناس وخداعهم ليضاعفوا ثروتهم الطائلة بحركات مالية تستنزف أموال الأمة» ويختتم فرح مقاله مشبها الرأسماليين بدود العلق الذى يمتص دماء البشر «ومن الغريب أنه ما من أحد يجهل ما أنطوت عليه هذه العلق الهائلة التى تمتص دماء الشعوب وحياتهم، هؤلاء الذين يدعون الشرف والاستقامة لكونهم لايخالفون نص القانون» (٦٠)

ولم يكن من السهل أن تمر كلمات كهذه دون هجوم.. فبعد أن نشر فرح أنطون روايته «أورشليم الجديدة» هاجمته المقتطف هجوما شديدا.. ولم تكن المقتطف وحدها «فقد علق

---

(٥٨) الجامعة – السنة الرابعة: العدد ١٠٢٩ – ص٣٧٤

(٥٩) مناهل الأدب العربى – المرجع السابق – ص٦١

(٦٠) الجامعة – السنة الثانية – الجزء ٢٢،٢٣،٢٤ – ابريل ١٩٠١ – ص٧١١

الكاتب الفاضل الشيخ سليم خطار الدحداح فى جريدة الصباح البيروتية تعليقا إنتقد فيه الرواية وقال إن مبدأ مجلة الجامعة هو مبدأ الكومينزم» (أى الشيوعية)».

لكن فرحا ليس من النوع الذى يتراجع أمام هجوم مهما زادت حدته، بل لعله واحد من هذا النوع الذى تزداد صلابته كلما ازداد تعرضه للهجوم فيرد ردا عاصفا «تولستوى وفولتير.. هؤلاء الأعاظم مع كونهم من الطبقة العالية، ومن أهل المال دأبهم أن يحاربوا بكل قواهم ذلك الفساد الاجتماعى والسياسى المبنى على سلطان المال الذى يسمم دم الأمة لأنه يقتل العدالة فيه، ويجعل القانون ألعوبة فى يد المال يميل معه حيثما مال، ويحصر السلطة والمنافع والأملاك والأرزاق فى أفراد قلائل، ويكون باقى الأمة أجراء مسخرين لهم يتعبون ويكدون ويكدحون وغيرهم يتمتع بثمرة تعيمهم دون أن يهتم أو يغتم لحاله الأمة والعمله (العمال) الذين يجمع ثروته منهم. ولعل فرح أراد أن يلوح لمنتقديه أنه ليس وحده فى الميدان فيقول: «ويظهر أن هذا الداء (الاستغلال الرأسمالى) قد بدأ ينتشر فى الشرق إنتشاره فى الغرب: فقد قرأنا منذ مدة عدة فصول فى الجرائد العربية فيها بروق ورعود على سلطان المال فى الشرق. منها مقالة فى جريدة «الصاعقة» المصرية هى فى الحقيقة صاعقة لم تقرأ قط مقالة بليغة بموضوع كموضوعها. وأخرى فى رصيفة فى البرازيل..».

بل هو ينذر خصومه بأن الصراع سيشتد بين الاشتراكية والرأسمالية. فيقول:

.. ويظهر لنا مما نقرأة ونسمعه أن هذه الحركة آخذه فى الامتداد والانتشار. ونحن نأسف لها لأنها ستكون فى مستقبل قريب أو بعيد سبب نزاع شديد بين الشرقيين كما هى بين الغربيين ولكن أحداً لايوقف مجرى النواميس الطبيعية. ومتى جاء ذلك الزمن، وصار معلوما فى الشرق أن هدم الفساد الاجتماعى مقدم على هدم الفساد السياسى لأنه بدون الفساد الاجتماعى يستحيل وجود الفساد السياسى، وستذهب دولة الاستفراد العصرى.

(الملكية الفردية) الذى أروج ما تكون بضاعته فى صفحات رصيفتنا المقتطف، ودولة الاحتكار المالى الذى يقيم له المقتطف فى صفحاته صورا وتماثيل تمجد أولئك الأمريكيين الطغاه الذين يحتكرون أرزاق الأمم ويعيشون فيها كالعلق يمتصون دمها ولا ينفعونها ثم «وتقوم دولة التعاون الاجتماعى والتضامن البشرى بين جميع طبقات الأمة» (٦١)

(٦١) فرح أنطون – الدين والعلم والمال – المدن الثلاث – الاسكندرية – ١ يوليو ١٩٠٣ – المقدمة.

.. هل اذكركم أننا فى عام ١٩٠٣ ولم نزل.

وفى ذات العام استخدم فرح أنطون أقوى طلقاته ضد المجتمع الرأسمالى فأصدر روايته الشهيرة والبديعة فى آن واحد «الدين والعلم والمال».

وفى هذه الرواية أقام فرح أنطون ثلاث مدن احداها يسودها الدين والأخرى يسودها العلم والثالثة يسودها المال، ثم أقام حوارا وصراعا بين ممثلى القوى الاجتماعية فى هذه المدن ليبرز فيه حقائق الصراع الطبقى بين العمال ورأس المال.

ونعتقد أن هذه الرواية تمثل أول اطلاله ماركسية شبه متكاملة على الفكر المصرى.

ويسجل فرح فى البداية أنه لايكتب رواية بالمعنى المفهوم «سميناه رواية على سبيل التساهل لأنه عبارة عن بحث فلسفى اجتماعى فى علاقة المال والعلم والدين وهو مايسمونه فى أوروبا بالمسألة الاجتماعية، وهى عندهم فى المنزلة الأولى من الأهمية لأن مدنيتهم متوقفة عليها» (٦٢)

ومحور الرواية شاب اسمه حليم اتى من أقاصى البلاد ليشاهد المدن الثلاث. لكن حليم ليس شخصا عاديا فقد «كان وهو فى المدرسة قد لمح فى ذهنه عصرا يسميه مؤرخو اليونان العصر الذهبى ويسميه كتاب المسيحية الفردوس الأرضى فبقى منه فى فكره أثر».

وفى الرواية يجلس رئيس الاجتماع.. رئيس جمهورية المدن الثلاث ليعلن افتتاح الجلسة معلنا «اما الآن فأننا نسمع الشكاوى التى اجتمعنا للنظر فيها بصدق وحسن نية..».

«فنهض زعيم العملة وقال: أن شكوى العمال من أرباب الأموال فالعمال يتعبون ويكدون وأرباب الأموال يتمتعون ويتلذذون، فمن العدل أن يشارك أولئك هؤلاء فى كل شئ..

فنهض النائب عن أرباب الأموال وقال: أن شكوى أرباب الأموال لم تكن من العملة أنفسهم فاننا نحب عمالنا كما نحب أولادنا، كيف لا وهم رفقاونا وشركاؤنا فى أعمالنا، وانما شكوانا من بعض الطامعين الذين يثيرون خواطرهم علينا ويحرضون طبقتهم على طبقتنا، فلتفصل الحكومة عن العمال هؤلاء المحرضين فيستتب السلام بين الجميع.

(٦٢) فرح أنطون - الدين والعلم والمال - المدن الثلاث - الاسكندرية - ١ يوليو ١٩٠٣ - المقدمة.
(٦٣) المرجع السابق ص١٤

فنهض رجل من فريق العلم وقال: اذا صح أنه متى رفعت يد الذين يسمونهم محرضين بين العمال فقد زال نصف شكوى أهل المال، وإنما يبقى عليهم فى هذا الموضوع أن يبحثوا هل يرافق السلام الذى يحصل حينئذ هناء العمال وراحتهم وسعادتهم، أم يبقى سلامهم موتا أدبيا وماديا كسلام أهل القبور. واننا معشر أهل العلم نفتخر فى هذا العصر بأننا قد حللنا فى هذه المسألة محل كل أهل الاديان، وصار همنا الأول التفكير بانهاض الشعوب وترقيتها بينما نرى أهل الاديان يسلمون الشعوب بأيديهم إلى الاطماع المختلفة فكان فعلهم مثل ملوك يخلعون أنفسهم بأنفسهم، ولذلك نراهم يكثرون من التزلف للاغنياء وأرباب الأموال، ويجارونهم فى كل شئ حتى فيما يخالف مبادئهم الدينية.. ويلهون الشعب فى أثناء ذلك بالتدجيل عليه ليشغلوه بالأوهام والأحلام عن مصالحه.

ثم يبدأ فرح أنطون فى كشف النقاب عن حقيقة الاستغلال فى المجتمع الرأسمالى.. فالجلسة الأولى كانت للاستماع إلى الشكاوى أما الثانية فكانت للمرافعات.

وكان أول المتكلمين زعيم من زعماء حزب العمال فقال: لقد احسنتم فى تخصيصكم الجلسة الأولى لمشاكل العمال وأصحاب الأعمال لأن هذه أكبر المشاكل.. ومتى حللناها حللنا معها سواها. ولكن لاسبيل إلى حلها الا باشراك العمال فى ربح الأعمال. فاننا الان نخدم أصحاب الأعمال كما يخدم العبد سيده.

وأسعدنا حظا وأعظمنا قدرا يتناول فى الشهر مائة فرنك أى يأخذ فى السنة أجره ١٢٠٠ فرنك فاذا افترضنا أن عددنا فى المعمل ٣٠ عاملا كان مجموع ربحنا جميعا فى العام ٣٦ الف فرنك على حين أن العمل يربح فى كل عام مليون فرنكا ربحا مجردا، وكل هذه القيمة تذهب وتنصب فى صندوق صاحب المعمل مع أننا نحن السبب فى ربحها.. ولنترك مسألة الربح جانبا ولننظر إلى مسألة أخرى، وهى أنه بين العمال والمستخدمين قوما لايتناولون فى اليوم أكثر من فرنك واحد أجرة لهم فكيف يمكن أن يكفيهم هذا الفرنك خصوصا اذا كان لهم أولاد عليهم القيام بأودهم.

لذلك نطلب منكم نحن العمال باسم الانسانية والاخاء البشرى أن تنصرونا فنحن الأكثرية فى البلاد، وبدوننا لا تقدرون أن تصنعوا شيئا، فحرام أن نصنع كل شئ، وعلى

ظهورنا تلقى كل الأحمال، ثم تترك الحكومة فريقا قليلا من أصحاب الأموال يحتكر منافع البلاد وفوائدها وخيراتها يسخر لنفسه الأمة كلها».

ويؤكد الكثير من الباحثين أن هذه الكلمات تطل منها.. ملامح قراءة متأنية لكتاب «رأس المال» بالتحديد.. وفرح أنطون لايخفى ذلك فعندما يرد أصحاب رأس المال مدعين أنهم يتمسكون بمذهب الحرية ويرددون آراء عديد من الفلاسفة يؤيدون «حرية» الاستغلال الرأسمالى.. يرد مثل حزب العمال قائلا «اذا كان فى حزبكم فلاسفة كبار وعلماء أعلام، ففى حزبنا من هم فوق العلماء والفلاسفة.. أنه كارل ماركس».

ويجرى النقاش طويلا.. يقف العمال والعلماء فى جانب ويقف رجال الدين ورجال المال فى جانب آخر.

ولكن فرح أنطون لم يكن بسيطا إلى هذه الدرجة فهو يعرف الفارق بين العلماء والعمال.. بين الثورة الحقه والاعتدال، وبين الماركسية واشتراكية الدولية الثانية، بين العمال وفكر مثقفى البرجوازية الصغيرة، فالعلماء يرفضون «الدولة الاشتراكية» ويطالبون بزيادة الضرائب، ويستيقظ الناس صباح اليوم التالى للجلسة ليجدوا على الجدران فى كل مكان شعارات حمراء ضخمة تقول «الشعب المهذب يخون الشعب المسكين».

ثم يوجه فرح أنطون خطابه إلى الكادحين قائلا:

«أيها العمال والمستخدمون

لقد خدعوكم وضحكوا عليكم، فلا تصدقوهم، ولا ترضوا باقتراحاتهم، اذ لاغرض لهم من هذه الاقتراحات سوى ارجاعكم إلى العبودية بالاجرة، وانتم لاتطلبون الضريبة على الايراد ولا زيادة رواتبكم بل تطلبون مشاركة أصحاب الأعمال فى أعمالهم. فاذا رفضوا هذا الطلب فان حقوقكم هى الاستيلاء على المعامل والمزارع والمتاجر والمصانع لأنها ملك لكم بحكم الطبع، وهو خير من حكم الشرع. فاستولوا عليها ولاتخافوا.

أيها الأخوة: هل تعرفون الذين خانوكم. خانكم أولئك الذين يسمون أنفسهم علماء ومعتدلين، ومادروا أن الاعتدال لايحصل حقا ضائعا.. أيها الأخوة: نحن فى غنى عن الجميع، واعتمادنا على أنفسنا طريقنا فلنجتمع اليوم على أبواب المصانع والمزارع والمتاجر

لنناقش أصحابها الحساب، ونريهم قوتنا، ونبلغهم نهائيا أننا نطلب الموت أو مشاركتهم فى أرباح أعمالهم» (٦٤)

وتتفجر الثورة ويتجمع العمال صائحين «الاشتراكية أو الموت» «تحيا الاشتراكية» لكن جنود الجيش كانوا يحرسون المصانع، فصاح العمال: أيها الجنود، نحن وأنتم أخوان لأننا من ابناء الشعب فلا تسيئوا إلينا، وصدرت الأوامر للجنود بالهجوم.. لكن خمسين جنديا ينضمون إلى العمال.. أما البقية فكان النظام العسكرى متأصل فى نفوسهم فساروا كالعميان إلى حيث يقودهم رؤسائهم، فتمكن الجند فى ذلك النهار من تفريق العمال».

.. ويقع فرح أنطون فى المأزق الدرامى، فكيف ينهى روايته، هل ينهيها بانتصار الاشتراكية هكذا ببساطة ومن إضراب عمالى واحد فى عام ١٩٠٣ أم ينهيها بهزيمة العمال فيحبط الثمار التى أراد لها أن تزهر.

.. وهكذا قرر فرح أنطون أن يهدم الحلم، وأن يطوى الصفحة دون نهاية أو خاتمة للصراع، موحيا بأن الصراع لا يزال وسيظل مفتوحا.. وهكذا استيقظ حليم من نومه ليجد المدن الثلاث وقد أصابتها صواعق وزلازل.

ولعلنا ندرك الأثر الذى تركته رواية كهذه.. لقد أثارت تأييدا وحماسا وهجوما وانتقادا..

ويعلق عليها مصطفى صادق الرافعى بقصيدة يتوعد فيها النظام الرأسمالى بثورة يقوم بها الفقراء.

يظن الأغنياء الفقر ضعفا ∴ وكم من حية تحت التراب
ولايخشون من جاعوا لديهم ∴ وليس أضر من جوع الذئاب (٦٥)

ولا يتوقف فرح عن معركته فعندما أضرب لفافو السجائر يساندهم فرح بشدة، بل هو يطلب فتوى من الإمام محمد عبده. بشأن مدى التزام الدولة بضرورة التداخل فى المنازعات بين العمال وأصحاب الأعمال، ويرد الشيخ محمد عبده بفتوى بالغة الأهمية

---

(٦٤) المرجع السابق ص٢٤

(٦٥) الجامعة – السنة الرابعة – الجزء الخامس ـ أغسطس ١٩٠٣ – ص٢٩٧

والدلالة تدين أسلوب الاستغلال الرأسمالى إدانة صريحة» (٦٦)

وعندما إشتعلت ثورة أكتوبر كان فرح أنطون معها ودافع عنها دفاعا صريحا وصادقا.. ويؤكد صديقه الحميم وزميل نضاله نقولا حداد «لقد اطلع فرح على مؤلفات ومقالات وأخبار عديدة تنفى معظم ما شنعه خصوم البلشفية عليها، وكان يؤكد أن الحركة البلشفية، كتجربة اذا فشلت أضرت الحركة الاشتراكية أمدا مديدا» (٦٧)

وعلى صفحات الأهالى تتوالى مقالات وأخبار تؤيد ثورة أكتوبر تأييدا حاسما..

«.. جاء من لندن أن مؤتمر الاشتراكيين الفرنسى فى تور قرر الانضمام إلى المؤتمر الشعوبى الثالث (الكومنترن) ويعد هذا العمل كحلقة من سلسلة التطور الاشتراكى فى الغرب، كما أنه يعد فوزا هاما لنظرية اشتراكيى موسكو» (٦٨)

.. «أنه لمن أوجب الواجبات على المدنية الغربية جميعها ألا تترك عهدا تاريخيا ذا صحيفة استثنائية وعلى جانب عظيم من الخطورة دون أن تكون على علم تام بعناصره.. أنه لاجرام عظيم ذلك العجز المخجل الذى ظهرت به أوروبا الغربية جميعها عن تفهم حقيقة روح المثل الروسى الأعلى.. ونظن إننا لانخرج عن دائرة الحقيقة اذا قلنا أن قوة الدفع التى شهدت مظاهرها فى روسيا السوفيتية لم تكن لتقوى على اخراجها نظم آلية فحسب بل من المحقق أن هاتيك النظم كانت تدمر تحت القوة المناهضة بقليل من العناء لو لم تكن مرتكنة على عامل روحى ثائر» (٦٩).

وتقف «الأهالى» دوما مع روسيا السوفيتية.. فتدين الصحف الغربية التى تشن حملات من الأكاذيب ضد السوفييت. وتقول: أن صحافة الغرب ذات شهرة طائرة فى تحريف الأخبار بل وإختلاقها وتدين «الأهالى» الهجوم البولندى على روسيا السوفيتية وتوالى نشر الاحتجاجات ضد هذا العدوان..

.. وتتوقف الكلمات.. فالقلب الثائر يتوقف.

ولعل الصراع مع الابره وثقبها كان أكثر ما انهك هذا القلب.

(٦٦) محمد عمارة - الأعمال الكاملة للأمام محمد عبده - الجزء الأول - المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت - ص٦٧٣ .

(٦٧) نقولا حداد - ترجمة حياة فرح أنطون - ملحق مجلة السيدات والرجال - ص١٤

(٦٨) الأهالى ٣ - ١ - ١٩٢١

(٦٩) الأهالى ١٥ - ٢ - ١٩٢١

رفيق جبور مثقف يحاول أن يكسر الابرة ذاتها

بطاقة شخصية:

الاسم: رفيق حبيب جبور

تاريخ الميلاد: ١٨٩٢

محل الميلاد: زحلة ـ لبنان

المهنة: صحفى

الانتماء السياسى: الحزب الشيوعى المصرى ـ عضو اللجنة المركزية

الاسم الحركى (السرى): محمد صديق عنتر

البداية:

وليست ككل البدايات، فنحن أمام فتى يقترب من الارستقراطية، أبوه حبيب جبور طبيب مشهور، والفتى يكمل دروسه فى المدرسة الشرقية فى زحلة لينال منصبا رفيعا بل وغير متوقع، فقد عينته الحكومة الايرانية قنصلا لها فى استنبول، وهو أمر كان مألوفا لدى الحكومات التى تفتقر إلى عدد كاف من المثقفين الذين يتقنون اللغات الأجنبية. وكان عمر الفتى عشرون عاما.. لا أكثر.

وفى ذلك الحين والحرب العالمية الأولى فى بدايتها كان الشريف حسين أمير الحجاز يعد العدة لإعلان الثورة العربية ضد الخلافة العثمانية، لكن نقطة الضعف فى خطة الشريف حسين كانت أن ابنه الأمير فيصل مقيم ـ بشكل اجبارى ـ فى استنبول، حيث دأبت الخلافة العثمانية على اجبار الحكام العرب على ارسال أبنائهم إلى عاصمة الخلافة لتحتفظ بهم كرهائن ضمانا لولاء الآباء.

واحتاج الأمر إلى شخص يتمتع بحصانة دبلوماسية، ويستخدم هذه الحصانة فى خدمة مشروع الثورة العربية.. وقام قنصل ايران «رفيق جبور» بهذه المهمة.. مهمة تهريب الأمير

فيصل من استنبول إلى الحجاز وبذلك أطلق يد الشريف حسين فى بدء تحركه ضد العثمانيين.

وكشف دور رفيق جبور فى هذه المهمة.. ونال رسالة شكر حميمة من الشريف حسين (لازالت أسرته تحتفظ بها حتى الآن).. ونال تأنيبا شديدا من الحكومة الايرانية التى استجابت إلى طلب حكومة تركيا بابعاده باعتباره شخصا غير مرغوب فيه.. ونقل رفيق قنصلا لايران بالاسكندرية.

ومع نهاية الحرب الأولى كانت مصر تلتهب بالثورة.. ومعها كان القنصل الثائر بكل وجدانه، وحتى الترقية التى نالها اذ عين قنصلا عاما لحكومة ايران بالقاهرة لم تدفعه إلى الالتفات لوضعه الدبلوماسى بل تجاهله منغمساً بحماس فى نشاط ثورى واضح دفع سلطات الاحتلال البريطانية الى تقديم الاحتجاج تلو الاحتجاج إلى حكومة إيران التى رضخت فى نهاية الأمر وقررت نقل قنصلها الثورى إلى بلد آخر.. لكن الرجل كان قد إختار طريق الثورة وإختاره طريقا مصريا، وقرر أن يمضى فيه حتى النهاية.. فخلع ثياب الدبلوماسية وألقى باستقالته فى وجه الحكومتين معا.. الحكومة الايرانية وسلطات الأحتلال بمصر.

ترك الدبلوماسية.. وعمل كصحفى (١)

وبدأ عمله الصحفى فى جريدة «المحروسة» التى كان يصدرها إلياس زيادة (والد مى زياده) لكنه لم يبق فيها طويلا وانتقل ليعمل فى جريدة أكثر ثورية وحماسا ضد الاحتلال هى جريدة «النظام».

ولكن لماذا جريدة «النظام» بالذات؟

لنعد قليلا إلى الوراء.

إلى عام ١٩٠٩ لنجد أن صاحب جريدة النظام السيد أفندى على كان صاحب أول محاولة جديدة لتأسيس حزب عمالى وكان «مديرا» لهذا الحزب.

ونطالع فى الأهرام بيانا بتوقيعه يقول «كلنا يعلم مركز العمال فى أوروبا، فالعامل

---

(١) النهار (اللبنانية) ٣١ - ١٠ - ١٩٧٣ رسالة من روفائيل جبور (ابن رفيق جبور) تعليقا على كتاب «ثلاثة لبنانيين فى القاهرة» د. رفعت السعيد

هناك لافرق بـينه وبين القاضى والمحـامى، ولما كان الانسان من فطـرته الطبيعـية مـيال إلى الارتفاء، قـام جمـاعة من خـيار العمـال المصريين الذين يقـدرون الأشيـاء وأسسـوا حزبا باسـمـهم ليربط كلمـتهم» ويمـضى البيان قـائلا: «أن الجلسة الأولى للحـزب قد إنعـقدت وحضرها جمع غفير من العمال والوجهاء وانتخب الحزب السيد أفندى على مديراً له» (٢)

.. ومادمنا قد قررنا الرجوع قليلا إلى الوراء.. فـسوف نكتشف أن جماعة من الثوريين والتقدميـين اللبنانيين المقيمين بمصـر منهم أنطون مارون ـ فؤاد الشمالى ـ شفـيق باسيور ـ أديب قشعمى ـ رفيق جبور قد أسسوا جماعة أسموها «جماعة لبنان الفتى» ويبدو أن رفيق قد انضم إلى هذه الجماعة وهو لم يزل دبلوماسيا الأمر الذى أثار ثائرة سلطات الاحتلال.

وكانت «جماعة لبنان الفتى» جماعة ثورية واشتراكية أيضا فما أن أعلن تأسيس الحزب الاشتراكى المصرى ١٩٢١ (أسمى نفسه عام ١٩٢٣ الحزب الشيوعى المصرى) حتى انضم إليه أغلب أعضاء الجماعة ولعبوا فيه دورا قياديا ولعل أبرزهم كان أنطون مارون (استشهد فى السجن مضـربا عن الطعام) وفؤاد الشمـالى وقشعمى. وجبـور الذى ما لبث أن أصبح عضوا فى اللجنة المركزية للحزب.

وجريدة النظام جريدة وفديه.

لكن محررها شيوعى.. وهنا نصل إلى مفارقة هامة وضعت كلا من رفيق جبور وحزبه فى مآزق عديدة.. لكن جبور استطاع بحسه الثورى المرهف أن يجد مخرجا منها.

وقصة جبور مع النظام «الوفدية» مليئة بأحداث مـثيرة للاهتمام، ولعلها تستحق دراسة منفصلة لكننا سنحاول أن نتلمس ما نعتقد أنه الأكثر أهمية.

ففيما كانت ثورة ١٩١٩ مشتعلة اشتعالا أخاف الأنجليز وقادة الثورة معا.

الأمر الذى دفع قادة الوفد إلى توجيه رسالة إلى السلطان فؤاد يتنصلون فيها من العنف الثورى قـائلين «أن أعضاء الوفـد لم يتعدوا حـدود القانون، ولم يهيـجوا فى البلد مظاهرة ولم يحركوا ساكنا» (٣)

والذى دفع زعيم الثـورة سعد زغلول إلى أن يكتب من منفـاه إلى عبد الرحمن فـهمى

(٢) الأهرام ١٦ - ٧ - ١٩٠٩

(٣) محمد الغنيت - ثورات العرب وثورة ١٩١٩ - ص٦٤

قائلا «ولايحسن التداخل فى مسائل الاعتصابات ولاغيرها من الأمور التى حرمتها السلطة العسكرية، بل يجب تجنبها حتى لايكون للخصوم حجة علينا فى أى شئ كان» (٤)

.. فى هذه الأثناء قررت بريطانيا أن ترسل إلى مصر بعثه تقصى حقائق اشتهرت فى التاريخ باسم «لجنة ملنر» وأعلنت اللجنة أن مهمتها هى الاستماع إلى آراء ومطالب المصريين.

وأسقط فى يد قيادة الثورة، من سيقابل اللجنة، وما علاقة ذلك بزعماء الوفد المنفيين، وماذا لو قابلت اللجنة أكثر من جهة واستمعت إلى أكثر من رأى.. وانحازت إلى رأى دون رأى؟

لكن رفيق جبور اكتشف الخدعة الانجليزية.. هم يريدون تفكيك وحدة الثورة.. ويريدون إثبات أن الزعماء المنفيين ليسوا وحدهم ممثلوا الأمة. وهم يطمحون إلى اكتشاف شخصيات «يمكن التعامل معها» بدلا من هذا الزعيم المتشدد سعد زغلول.

ومن ثم رفع على صفحات جريدة النظام شعارا سرعان ما أصبح شعار مصر كلها «مقاطعة لجنة ملنر» وتوحدت مصر خلف هذا الشعار، وامتنع على كل مصرى أن يخاطب «ملنر» أو لجنته. وتشكلت لجان من الشباب لمراقبة الفندق الذى تقيم فيه اللجنة ومراقبة تحركاتها كى تمنع أى اتصال بها.

مصر كلها قاطعت اللجنة ولم يصدق ملنر أن شعارا ما يمكنه أن يصبح عقيدة أمة، وأن شعبا ما يمكنه أن يتوحد بحيث لايمكن إختراقه.

لم يصدق ملنر، وأمر ركبة أن يتحرك. وفى أحد الحقول على أطراف القاهرة توقف، ونزل تحيط به أبهة المحتلين وسطوته واختار فلاحا وحاول أن يتحدث معه عن طريق مترجم.

ودار الحوار التالى.. الذى أثبته ملنر فى مذكراته:

س: ما اسمك؟

جـ: صمت

(٤) د. محمد أنيس - دراسات فى وثائق ثورة ١٩١٩ - ص١٠٢

س: هل أنت متزوج؟

جـ: صمت

س: هل لك أولاد؟

جـ: أسأل سعد باشا.

س: الساعة كم الآن؟

جـ: أسأل سعد باشا [(٥)]

وأيقن ملنر أن مصر قد توحدت.. وأنه لايمكن اختراقها.

وتبقى أسطورة مقاطعة لجنة ملنر واحدة من أهم دروس ثورة ١٩١٩ وأهم معالمها لكن الكثيرين ينسون أن صاحب الشعار والداعى له هو: رفيق جبور.

ولم ينس الانجليز لرفيق جبور ولا لجريدة النظام هذا الموقف.

فما لبثوا أن قبضوا على جبور فى قضية مقتل السردار وحاولوا جهد طاقتهم الصاق تهمة الأرهاب المسلح ضده، محاولين أن يضربوا خصمين لدودين بحجر واحد حزب الوفد والحزب الشيوعى.. وأن يضربوا العلاقة بينهما فينشر الأهرام نقلا عن «المورننج بوست» البريطانية أن ثمة أدلة على «علاقة الوفد بدسائس البلاشفة» وتحدثت الجريدة عن «الوسائل التى يستخدمها الوفد بلا ضمير للحصول على المساعدة الأجنبية لتأييد دسائسه ضد الانجليز».

وتمضى الجريدة على لسان مراسلها بالقاهرة قائلة «والظاهر أنه توجد روابط بين مساعى البلاشفة وحملة القتل الموجهة ضد البريطانيين وبين المقبوض عليهم اثنان من محررى الصحف الوفدية» [(٦)]

وتكتب الديلى تلجراف «وأعظم ما يلفت الانظار فيما اكتشفه البوليس هو ما يدل على العلاقة الوثيقة بين دسائس البلاشفة وحملة القتل، وعلاقتهم أيضا بالوفد لأنه يوجد بين المقبوض عليهم طاهر أفندى العربى المحرر بكوكب الشرق احدى الصحف الوفدية

(٥) لمزيد من التفاصيل راجع: د. رفعت السعيد ـ سعد زغلول بين اليمين واليسار - دار القضايا ـ بيروت

(٦) الأهرام ٣ - ٦ - ١٩٢٥

الكبرى ورفيق جبور المحرر بجريدة النظام وهى من الصحف الوفدية أيضا» (٧)

الأمر الذى دفع سعد زغلول إلى محاولة التنصل من ذلك كله مذكرا الجميع بأنه هو الذى أصدر قرار حل الحزب الشيوعى المصرى ومصادره ممتلكاته والقاء القبض على قادته وتقديمهم للمحاكمة وأكد «أن وزارة الشعب كانت عنيفة على الشيوعيين وانها أرسلت الكثيرين منهم إلى القضاء» (٨)

•••

ولنعد أدراجنا مرة أخرى.

ففى أعقاب موجة من النشاط العارم الذى قام به الحزب الشيوعى المصرى، ع تصاعد معارك عمالية واسعة شملت معظم مصانع الاسكندرية، حيث اعتصم العمال بالمصانع، ورفعوا عليها رايات حمراء.. وخاضوا معاركهم تحت القيادة المباشرة للحزب، الأمر الذى دفع أحد كبار رجال البوليس «انجرام بك» إلى التأكيد فى شهادته أمام محكمة الجنايات التى حاكمت قادة الحزب الشيوعى على «أن العمال كانوا يعملون بنصائح الاستاذ أنطون مارون (عضو اللجنة المركزية للحزب) ورفاقه، وأنه لم يكن سهلا على البوليس إخراج العمال من المصانع ولكن إخراجهم كان من أيسر الأمور على الاستاذ مارون، كما أن كلمة واحدة منه كانت تكفى لانهاء إحتلال العمال للمصنع» (٩)

وترسل انجلترا قطعتين بحريتين إلى الاسكندرية.

ويوجه سعد زغلول رئيس الوزراء رسالة غاضبة إلى العمال المضربين قائلا «أنكم أن إحترمتم ملكية الغير وخرجتم من مكان الشركة طوعا فانكم تعاملون معاملة المخلصين للقانون والوطن. وأن أبيتم الا إحتلال ملك الغير إغتصابا فانكم تعاملون معاملة الغاصبين الخارجين على القانون» (١٠)

وبدأت جريدة الأهرام ـ كعادتها ـ الحملة على الحزب الشيوعى فكتبت تقول:

---

(٧) الأهرام ١ - ٨ - ١٩٢٥

(٨) الأخبار ٢٩ - ٨ - ١٩٦٣ نقلا عن مذكرات سعد زغلول يوم ٤ - ٦ - ١٩٢٥

(٩) الأهرام ٢٩ - ٩ - ١٩٢٤

(١٠) الأهرام ٥ - ٣ - ١٩٢٤

«إنفجرت الحركة الاشتراكية الملقحة بالشيوعية فى هذين اليومين فى الاسكندرية انفجارا قويا حمل الحكومة على المبادرة إلى معالجتها والاستعداد لقمعها بالقوة المسلحة إذا إقتضى الحال» وتمضى الأهرام محرضة لسعد زغلول قائلة: «اننا نرجو أن تتخذ وزارة الشعب التدابير اللازمة لمنع تكرار ذلك، وأن تقضى على المذهب الشيوعى قبل استفحاله، ان للعمال حقوقا يجب أن تصان ولكن لهذه الحقوق حدودا يجب ألا تتجاوزها، واذا كانت الصحافة قد عطفت عليهم فانه لايسعها اليوم الا أن تحذرهم من عواقب الميل إلى الشيوعية والتشبع بالمبادئ المتطرفة» (١١)

ثم من التلميح إلى التحريض الصريح والمباشر تمضى جريدة الأهرام معبرة عن آراء الاحتلال والرجعية المصرية وتقول: «تنسب الحكومة حركة العمال القائمة فى الاسكندرية الآن والتى بدأت فى ٢٣ فبراير الماضى. إلى تحريض الحزب الشيوعى المصرى ودعاته فى الاسكندرية وقد قررت بمناسبة ذلك أن تجتث هذه الحركة من أصولها للمحافظة على النظم الاجتماعية المحلية» (١٢)

.. وهكذا تهيأ المسرح وصدر قرار بحل الحزب الشيوعى المصرى.

وفى ٣ مارس ١٩٢٤ اعتقل عشرات من قادة الحزب وكوادره، وأغلقت دور الحزب وصودرت ممتلكاته وأمواله وبدأت حملة هستيرية لعلها أشد حملات العداء للشيوعية ضراوة ووحشية.. (١٣)

وبعد أن قام سعد زغلول بالمهمة، كان حادث السير لى ستاك وقدمت بريطانيا مطالبها المتشددة، وقدم سعد استقالته أو بالدقة أجبر على تقديمها وتولى رئاسة الوزارة زيور باشا الذى ضرب به المثل فى الرجعية وفى اتخاذ أكثر القرارات تحديا للعقل والمنطق..

وأصدر زيور باشا سلسلة من القرارت الغريبة فمنع دخول الكتب والصحف والمجلات

(١١) الأهرام ٢٥ - ٣ - ١٩٢٤

(١٢) الأهرام ٤ - ٣ - ١٩٢٤

(١٣) المزيد من التفاصيل راجع: د. رفعت السعيد تاريخ الحركة الشيوعية المصرية - المجلد الأول - دار الأمل - القاهرة.

الاشتراكية إلى مصر بل ومنع سفن الاتحاد السوفيتى من الرسو فى الموانئ المصرية..

.. وفى ٦ أكتوبر ١٩٢٤ أصدرت محكمة الجنايات أحكاما قاسية بالسجن ضد قادة الحزب.. وفى ذات اليوم تشكلت لجنة مركزية جديدة.. كان رفيق جبور واحدا من أعضائها..

• محمد صديق عنتر المصرى

وفى مواجهة الحملات الإعلامية الشرسة ضد الشيوعية وضد الحزب الشيوعى كان لابد من حملة مضادة، وتكفل رفيق جبور بالقيام بهذه المهمة هو ومجموعة من الكوادر الحزبية..

واختار رفيق جبور اسما سريا ليكتب به وليتحرك تحت مظلته إعلاميا، وفى الأغلب اضطر رفيق إلى ذلك تلافيا للحرج الذى نشأ من كونه المحرر الأول لجريدة النظام الوفدية..

على آية حال.. نحن الآن مع محمد صديق عنتر المصرى الذى يبدأ نشاطه الإعلامى كالاعصار مدافعا عن الاشتراكية والاشتراكيين داعيا جماهير العمال والفلاحين إلى التحرك النضالى..

وقد أبدع محمد صديق عنتر حصيلة فكرية راقية ومقتدرة توحى بوعى راق وفهم متألق للاشتراكية المرتبطة بالواقع المصرى إرتباطا خلاقا وواعيا.

ولعله من الضرورى أن نحاول إلقاء نظرة عاجلة على بعض الأفكار والمواقف التى دعا إليها..

ولنبدأ بترجمته لكتاب «خلاصة المبادئ الاشتراكية» لكارلوس رابو بورت.

وبالاضافة إلى الاختيار الذكى، وشجاعة التصدى، ودقة الترجمة يضيف محمد صديق عنتر إلى الكتاب مقدمة وخاتمة.. وفى المقدمة يحذر القارئ:

«ليس هذا الكتاب رواية فتطالعه على عجل، ولا صحيفة إخبارية فتلقى عليه نظرة سطحية ثم تلقيه من يدك فى زوايا النسيان. ان هو الا مبادئ قد سادت بلادا كثيرة شاسعة

الاطراف، ويجب أن تسود العالم يوما، فاقرأه وهذه الفكرة أمام عينيك، ثم أرجع إليه كلما قرأت في الصحف نبأ انتصار هذه المبادئ في العالم وهي أنباء ستتوالى بكثرة كما سيريك المستقبل».

ثم يوجه حديثه.. «إلى العمال: لقد كنت مثلكم حائرا في معرفة نهاية الطريق الذي تدفعنا إليها الهيئة الاجتماعية الحاضرة وقد عرفت هذه النهاية وهي أننا واصلون يوما لامحالة إلى سيادة المبادئ التي عرضتها عليكم في كتابي هذا، فترتاح الانسانية من تنازع الطبقات، وظلم الانسان لأخيه الانسان، فاقرأوا هذه المبادئ وادرسوها، واحفظوها فهي التي ستسود بلا ريب» (١٤)

أما الخاتمة فتقول: «هذه أيها القارئ المبادئ التي أردت عرضها عليك، قدمتها في كتابي الصغير هذا.. واذا ظننت ـ كما كنت أظن أنا نفسي في زمن مضى ـ أن هذه المبادئ ليست سوى مجرد نظريات خيالية قد لايمكن تحققها فأرجوك أن تعيد قراءتها، وتأخذ كل فكرة منها على حدة، وتقابل بين حالة الهيئة الاجتماعية في الماضي وبين حالتها اليوم، فترى بوضوح وجلاء كيف تسير الانسانية بخطوات واسعة نحو تحقيق هذه الأفكار والمبادئ، وكيف أن ما كان يدعى في الماضي مستحيلا قد تحقق فيما بعد مع توالي الأيام».

ويمضي الرجل ليحاول أن يرتبط بالقارئ بشكل مستمر فيعلن.. «وسأتبع كتابي هذا بكتب أخرى فكلما رأيت اسم رفيقك «محمد صديق» على كتاب فاعرف أنه تقدمه مني إليك، وقد سميت نفسي «رفيقك» وأنا متأكد أنك حالما تقتنع بهذه المبادئ سنصبح رفاقا وان كنا لم نتعارف بعد..»

وتمضي الخاتمة «أما أنت أيها العامل المصري المظلوم، فلأجلك خصيصا قد ترجمت هذا الكتاب ومن أجلك سأنشر عدة كتب أخرى في هذا الموضوع.. فاسع إلى نشرها بين زملائك وأولادك وذوي قرباك، وجاهد في سبيل سيادتها. وكلما ساور اليأس نفسك من ظلم أخيك الانسان لك، فاذكر مبادئي هذه، وتذكر أن لاخلاص لك الا بنشرها، وجدد

(١٤) كارلوس رابو بورت - خلاصة المبادئ الاشتراكية - ترجمة محمد صديق عنتر المصري - المطبعة العربية بمصر (٢٠ أبريل ١٩٢٥) - ص٣

همتك ونشاطك فى سبيل رواجها ليقترب يوم الخلاص..

ان كاتب هذه الأسطر رفيق من رفاقك.. وها هو يبذل لك جهوده فى سبيل سعادة الطبقة العاملة فى المستقبل فهلا شاركته فى هذا العمل؟» (١٥)

• مجلة الحساب..

لكن اصدار الكتب وحده لايكفى، فلابد من جريدة علنية.

وتقدم رفيق جبور إلى وزارة الداخلية طالبا ترخيصا لاصدار جريدة، وقبل منه التأمين ثم عادت وزارة الداخلية فرفضت منحه الترخيص (١٦)

ولم يكن ثمة مجال الا إستئجار رخصة لجريدة..

وإستأجر جريدة الحساب وبدأ فى إصدارها فى ٦ مارس ١٩٢٥.. فصدرت ـ فى واقع الأمر ـ كلسان حال للحزب الشيوعى المصرى، وأعلنت فى صدر صفحتها الأولى أنها تصدر للدفاع عن حقوق العمال والفلاحين..

وتحدث مفارقة جديدة فجبور يتقدم للداخلية بطلب الاذن له بتولى رئاسة تحرير جريدة الحساب فترفض الوزارة وهنا يضطر إلى أن يبقى صاحب الترخيص وهو شخص عادى اسمه «ابراهيم الصيحى» كرئيس للتحرير ويتولى رفيق جبور رئاسة التحرير الفعلية فبينما يبقى اسم إبراهيم الصيحى كرئيس للتحرير فى صدرة الصفحة الأولى فإن المجلة تعلن التنبيه التالى فى الصفحة الثانية «من الادارة إلى القراء: ترجو إدارة جريدة الحساب حضرات القراء والمكاتبين وكل من له علاقة معها مخاطبة: رفيق جبور إدارة جريدة الحساب بشارع الدواوين رقم ٤٤ وذلك فى كل شأن من شئون الجريدة وجميع المراسلات يجب أن تكون باسمه لا باسم أخر» (١٧)

والحقيقة أن الحساب لم تكن مجرد جريدة عادية، ولا كانت مجرد منبر علنى لحزب

---

(١٥) المرجع السابق ص٦٣

(١٦) لمزيد من التفاصيل راجع: د. رفعت السعيد - تاريخ الحركة الشيوعية المصرية (الصحافة العلنية) المجلد الثانى - دار الأمل - القاهرة - ٢٣

(١٧) الحساب ١٠ - ٤ - ١٩٢٥

سرى يحاول خصومه مطاردته مطاردة شرسة وعنيفة، بل كانت فى واقع الأمر إدارة لإعادة تنظيم الحزب وربط خطوطه التى حاول البوليس تمزيقها، ومحاولة لبث الشجاعة فى نفوس الأعضاء والكوادر وتحقيق المزيد من جماهيرية الحزب وترابطه..

فالشيخ شاكر عبد الحليم وهو طالب أزهرى وكادر حزبى نشيط كان مسئولا عن نشاط الحزب فى الوجه البحرى فتعلن الحساب «ان الشيخ شاكر عبد الحليم هو وكيلها فى الوجه البحرى وهى ترجو العمال والنقابات وكل من له صلة بها إعتماده فى كل الشئون الخاصة بها ـ الإدارة».

وفى نفس العدد إعلان آخر «وكيلنا فى الاسكندرية: تعلن إدارة جريدة الحساب أن وكيلها العام فى الاسكندرية هو حضرة الأديب أحمد أفندى حشمت حماد وهى ترجو العمال والنقابات وكل من له علاقة معها فى الاسكندرية باعتماد حضرته فى كل أعمال الجريدة».

ولعل الأمر واضح..

ولن نطيل كثيرا فى ملحمة إصدار جريدة الحساب.. والدور الذى لعبته فقط سنحاول أن نلقى نظرة على الاسهام الفكرى الخلاق لرفيق جبور..

ولنبدأ بأول كلمات العدد الأول من «الحساب».. بإفتتاحية العدد الأول

«.. لأجل الطبقة العاملة من فلاحين وعمال أنشأنا هذه الصحيفة، لأجل إسماع السلطات الحاكمة وباقى الطبقات فى مصر صوت هذه الطبقة البائسة المظلومة أقدمنا على هذا العمل الشاق الذى طالما عجلت النفس إلى خوض أمواجه المتلاطمة فصدتها العقبات والموانع، فأقدمت تارة بضع خطوات إلى الأمام، وتراجعت طورا إلى الوراء بضع خطوات.. أن الطبقة العاملة فى مصر هى أكثر الطبقات عدداً وأكثرها بؤسا وشقاء وأقلها نصيبا من إعتناء الحكومة والعمل على رفع مستواها وازالة المظالم عنها».

ولاتخفى الجريدة وجهها بل هى تعلن ومن اللحظة الأولى إنها إمتداد للنضال الحزبى الذى تحاول الحكومة منع مسيرته فتقول «كنا ممن اندمج فى حركة العمال منذ تجدد نهضتهم إلى الآن، وجاهدنا معهم وتمشينا واياهم درجة درجة فاختبرناهم واختبرونا»

وتقول «سنخصص جريدتنا هذه لمجرد خدمة العمال لتكون صوت العمال فلا يسمع من على صفحاتها صوت آخر، ولاتخدم هيئة غير هيئاتهم، ولا شخصا غير أشخاصهم وأشخاص الذين يعطفون عليهم ويسعون فى منفعتهم وفى سبيل الوصول إلى حقوقهم»(١٨)

.. وكان زيور باشا قد حل البرلمان ويستعد لاجراء إنتخابات جديدة، وبدأ الحزب الشيوعى فى الاستعداد للمشاركة فى هذه المعركة، وأعلن الحزب تشكيل لجنة اسماها «لجنة الدفاع عن حقوق العمال والفلاحين» وقد تشكلت هذه اللجنة من عناصر حزبية وأخرى نقابية وتقدمية وأعدت برنامجا انتخابيا ليتقدم مرشحوها على أساسه فى الانتخابات ودعت الناخبين «لاتعطوا أصواتكم لأى شخص لايقبل هذا البرنامج ويعد بتنفيذه».

لكن البوليس يهاجم المطبعة التى طبعت البرنامج ويصادر جميع نسخة، وتسرع «الحساب» لتنشر نصه الكامل.. ونقرأ فقرات من البرنامج..

- الاستقلال التام لمصر والسودان بلا قيد ولا شرط.

- رفع الرقابة الاجنبية عن المالية المصرية.

- إعادة العلاقات السياسية والتجارية بين مصر باعتبار أنها دولة مستقلة وبين جميع الدول على الاطلاق ومنها تركيا وروسيا وبلغاريا.. كما كانت الحالة قبل الحرب.

- إحترام كافة الحريات التى نص عليها الدستور وتنفيذ نصوصه مثل حرية الصحافة - حرية الأفكار - حرية الاجتماعات - حرية الأحزاب.

- تنفيذ نصوص الدستور بشأن التعليم الأولى الاجبارى المجانى وتوسيع نطاق المشاريع الصحية وتعميم المستشفيات فى أحياء الفقراء والفلاحين.

- إلغاء الضرائب غير المباشرة على المواد الأولية الضرورية للمعيشة مثل الخبز والخضار واللحم والماء.. ألخ.

---

(١٨) الحساب ٦ - ٣ - ١٩٢٥

ـ مكافحة أزمة غلاء المعيشة والمسكن.

ـ سن تشريع خاص للعمل.

ـ جعل يوم العمل ثمانى ساعات تبتدئ فى آن واحد.

ـ التأمين على حياة العامل ومستقبله بواسطة المصلحة التى يشتغل فيها سواء كانت حكومية أو أهلية.

ـ إلغاء قانون منع الأضراب والاعتصام.

ـ حماية النساء والأولاد ومنع تشغيلهم ليلا فى أى عمل كان من الأعمال.

ـ توزيع أراضى الحكومة على صغار الفلاحين بعد توصيل المياه اللازمة اليها.

ـ تسليف الحكومة صغار الفلاحين ما يحتاجون إليه من الأموال بفوائد قليلة جدا وانشاء مصرف زراعى لهذا الغرض.

ـ تعديل الضرائب على الأطيان بقصد تخفيفها على صغار المالكين وزيادتها على كبارهم.

ـ تسهيل رى الأطيان على الفلاحين الصغار الذين يملكون خمسة أفدنة أو أقل مع إعطائهم كفايتهم من الماء» (١٩)

.. ونتوقف لنلاحظ بساطة البرنامج والتزامه بنقاط واضحة ومباشرة تمس مصالح العمال والفلاحين والوطن، وانه برنامج جبهوى واسع يمكن عناصر واسعة من خارج الحزب من الالتفاف حوله.

وقد أدرك رفيق جبور طبيعة القوى التى يتوجه إليها وتعمد التبسيط الشديد فى خطابه السياسى معها، ومن ثم خرجت جريدة «الحساب» بسيطة فى معالجتها حتى لاعقد القضايا، ولعل «محمد صديق عنتر المصرى» كان أول من إستطاع تبسيط الخطاب السياسى للشيوعيين المصريين ومعالجة مختلف القضايا ببساطة وبأسلوب يمكن أن يصل إلى العمال والفلاحين وأن يتعامل معهم.

(١٩) راجع النص الكامل للبرنامج فى د. رفعت السعيد - تاريخ الحركة الشيوعية المصرية - المجلد الأول - المرجع السابق - ص٥٧٢

وقد استند رفيق جبور فى تحريره للجريدة إلى رفيقه فى عضوية الحزب محمود رمزى نظيم وكان أشهر شعراء العامية المصرية فى العشرينات..

ولعل «الحساب» كانت أول جريدة شيوعية تلجأ إلى الشعر العامى فى معركتها الطبقية وتتخذه أداة مثلى لتبسيط خطابها السياسى وجعله قريبا من العمال والفلاحين..

وعلى صفحات «الحساب» ينشر محمود رمزى نظيم أشعاراً بسيطة ورائعة وطبقية فى آن واحد فهو يدعو العمال والفلاحين إلى أن «يلموا عزالهم» وأن يهاجروا من مصر.

وسيبوا مصر للملاك تسكنها .·. يجندوا جيشها من خير شجعان
وسيبوا النيل للأسياد تحرسه .·. وقت العلو وقد أضحى كطوفان
ودوروا لنا على العمال اخوتنا .·. م اسكندرية لدمياط لاسوان
يسيبوا الشغل للملاك تعمله .·. فيصبحوا بين نجار وسنان
وساعدوهم على لم العزال ونا .·. سايق حميركم وحاطط ديلى فى سنانى

وكانت دعوات رجعية تتصاعد مطالبة بحرمان العمال والفلاحين والفقراء عموما من حق الانتخاب وقصره على من يسددون شريحة معينة من الضرائب والحاصلين على شهادات دراسية عالية.

ويمضى محمود رمزى نظيم مندداً بهذا المنطق مؤكدا على حقوق العمال والفلاحين فى الانتخاب.

يكفى بقى غلبنا، يكفى فضيحتنا .·. واللى جرى ينكتب فى كل جرنان
قال يتركونا وعن صحة سلامتنا .·. لا يسألوا فى انتخاب جاى من تانى
والأغنياء بس مندوبون ينتخبوا .·. للبرلمان فهم أرباب سلطان
والحاملين شهادات مقلوظة .·. كالأغنياء فهم أصحاب عرفان
سبعة وتسعين فى الميه مكممة .·. عن الكلام وان كانوا كسحبان
أما الثلاثة فى الميه فانهموا .·. أهل الرياسة فى أنس وفى جان
فان يقولوا فمصر كلها نطقت .·. ومن بمصر سواهم غير جدعان [(٢٠)]

---

(٢٠) الحساب ـ ١٨ ـ ٥ ـ ١٩٢٥

ويتخذ رفيق جبور موقفا ناضجا ومبكرا من الصهيونية ومن خطرها على الوطن الفلسطيني. فينشر مقالا بعنوان «بلفور يزور ضحيته وفلسطين تقابله بالأضراب العام» والمقال هجوم على الصهيونية وعلى محاولتها لاغتصاب الأرض الفسطينية، ويصف جبور في مقاله بلفور «بأنه صاحب التصريح المشهور الذى أصدره باسم الحكومة الانجليزية.. والذى بموجبه أعطت فلسطين لليهود والصهيونية رغم إرادة سكانها وضد كل شرع وعرف وقانون» وقال: «وعندما زار بلفور فلسطين فى أول ابريل ١٩٢٥ بدعوة من الجامعة العبرية قابلة السكان فى كل مكان حل فيه بجميع الوسائل التى تعبر عن سخطهم وغضبهم واشمئزازهم من زيارته التى تشبه زيارة القاتل لأهل القتيل والمعتدى لضحيته».

ويختتم رفيق جبور مقاله قائلا «أننا نحيى هذه النهضة البديعة فى فلسطين ونأمل أن يواظب الفلسطينيون الكرام على أمجادهم وجهادهم فى سبيل استقلال بلادهم، وهم كمظلومين مرهقين عليهم أن يضعوا أيديهم فى ايدى كل طبقة من طبقات العمال فى أى بلد من البلدان، فالطبقة العاملة مظلومة فى كل مكان وكل مظلوم للمظلوم نسيب» (٢١)

ويبقى أن نقرر أن الرجعية المصرية كانت فى ذلك الحين تناصر الصهيونية وتتعامل معها، وأن أحمد لطفى السيد باشا سافر ليحضر احتفالات تأسيس الجامعة العبرية جنبا إلى جنب مع اللورد بلفور.

لكننا نمضى سريعا عبر أعداد «الحساب» لنركز الضوء على مقالات أربع لعلها صالحة لأن تتخذ سبيلا للتعرف ليس فقط على فكر رفيق جبور وإنما على فكر ومواقف الحزب الشيوعى المصرى فى هذه الفترة..

ولعلها أيضا تقدم لنا نموذجا فى الخطاب السياسى الواضح والمباشر والسهل والذى استطاع رفيق جبور أن يبدعه وأن يخاطب به جماهير المصريين البسطاء فقد استطاع أن يعالج المسائل النظرية والفكرية والتنظيمية بأسلوب سهل وخال من التعقيد والغموض محققا بذلك قفزة هائلة وضرورية فى أسلوب الخطاب الشيوعى.. المصرى.

والمقالات الأربع.. احداهن فى صورة رسالة موقعة باسم محمد صديق عنتر والثلاثة

---

(٢١) الحساب ١٨ - ٥ - ١٩٢٥

موقعة باسم رفيق جبور.. ولعلنا نعلم جيدا ـ الآن ـ أن محمد صديق عنتر هو الاسم السرى لرفيق جبور..

والمقال الأول هو افتتاحية العدد الأول للحساب.. ولقد أوردنا بضعة أسطر منه فيما سبق، لكننا نجد أنفسنا الآن مضطرين لمواصلة استعراض هذا الجهد الفكرى الهام..

فهل كانت مصادفة أن يتخذ جبور عنوانا لافتتاحية العدد الأول للجريدة الشيوعية الأولى التى تصدر علنا فى مصر.. «عن الوضع الطبقى فى مصر»؟، وهل كان مصادفة أن تكون الكلمات الأولى فى الافتتاحية «لأجل الطبقة العاملة من فلاحين وعمال أنشأنا هذه الصحيفة»؟.

وتمضى الافتتاحية لتحلل وباقتدار وبأسلوب واضح وخال من التعقيد.. الوضع الطبقى فى مصر..

«أن سكان الأرياف كلهم فلاحون لايملك الواحد منهم أكثر من خمسة أفدنة وقد لايملك بعضهم جزء من الفدان عدا أفراد قليلين يعدون على أصابع اليد الواحدة يملك كل منهم ألف فدان أو أكثر.

وكذلك الحال فى المدن اذ بينما نرى فردا واحد يملك الدور والقصور نرى بجانبه ألوفاً من العمال البائسين أو من العاطلين عن العمل يتسكع الواحد منهم فى الطرقات طول النهار يفتش عن عمل يقتات مع أهله بأجره الزهيد فلا يجد، حتى اذا غربت الشمس يأوى إلى ركن من أركان الشارع أو عطفة من عطفات الأزقة ليرتمى بجسمه المنهوك على الرصيف فيحول رجال البوليس دون بغيته..

وهكذا نرى أن الفرق بين طبقات الشعب المصرى كبير جدا وظاهر واضح. فمن فلاح مسكين يملك من الأرض لاشئ، ويعمل فى أرض سواه بمالا يسد له رمقا ولا يقيه من جوع أو برد، إلى مالك غنى يحوز ألف فدان أو أكثر.. من ابن فلاح يعمل طول يومه فى الحقل لقاء قرشين أو قرش ونصف.. إلى موسر غنى يصرف بلا حساب ويرمى الجنيهات كيفما إتفق.. ومن عامل إما يشتغل لحسابه فيعمل يوما ويعيش بلا عمل لعدة أيام.. أو يشتغل فى شركة من الشركات الأجنبية بريال كل يوم يخصم نصفه أو أكثر من نصفه ما بين جزاءات وغرامات وأجازات اجبارية وغلطات حسابية وألف ضريبة أخرى، إلى

صاحب عمل لو طحن الذهب وعجنه بدل الدقيق وأكله خبزا إبريزا لما تمكن أن يأكل هو وآله وأقاربه وخدمة وحشمه ورفيقاته وسرارية عشر دخله اليومى.

وبين هذه الطبقة وتلك، توجد طبقة أخرى قليلة العدد تنقسم إلى قسمين: الموظفون وأصحاب المهن الحرة.. أما الموظفون فالكبير منهم هو من أبناء الفئة التى وصفناها، والموظف الصغير أما ابن ثرى وسيصبح عما قريب موظفا كبيرا ينتقل إلى هذه الطبقة، واما ابن رجل متوسط الحال كتب له الشقاء والمسكنه والبقاء فى الدرجات السفلى من درجات التوظف عدا نفر قليل جدا والشاذ لايعتد به، فهو والحالة هذه يكون فردا من أفراد الطبقة الوسطى، وهى الطبقة القليلة العدد على ما قلنا..

وأصحاب المهن الحرة على درجات.. فالمحامون والأطباء والمهندسون والصحفيون الخ كثير الدخل منهم حكمة حكم الموظف الكبير، وفقيرهم ينضم إلى الطبقة الوسطى فلا يزيد من عددها القليل لقلة عدده، وهناك أرباب الصناعات الصغيرة وهؤلاء منهم الغنى والفقير أيضا فالغنى من طبقة الأغنياء والفقير من الطبقة الوسطى لأن غناه نسبى أيضا فلا هو بالعامل البائس ولا بصاحب العمل ذو المال الوفير» (٢٢)

وبعد هذا التحليل الواعى البسيط فى آن واحد، والذى استقى رؤيته وخصائصه من الواقع المصرى وليس نقلا عن أى كتاب.. يؤكد رفيق جبور ولاءه للطبقة العاملة «ستخصص جريدتنا هذه لمجرد خدمة العمال» ثم يقول «ولا نكثر فى هذا الموقف من الوعود والعهود شأن أبناء الطبقات الأخرى الذين يقولون كثيرا ويعملون قليلا أو لا يعملون أبدا.. بل أننا نشرح خطة وبرنامج عملنا باختصار، وعلى طريقة العمال.. القول على قدر العمل، أو القول القليل مع العمل الكثير، وقد رأى من عرفونا فيما مضى من العمال وسيرى من لم يعرفونا بعد أننا من الذين يخلصون فى العمل ويفضلون أن تتكلم أعمالهم عنهم لا أن تتكلم عنهم أقلامهم وألسنتهم».

.. أما المقال الآخر فهو رسالة موقعة باسم محمد صديق عنتر (*) وتقول «حضرة

(٢٢) الحساب ٦ - ٣ - ١٩٢٥

(*) أكدت تحريات البوليس التى أوردتها النيابة أثناء التحقيق أن رفيق جبور هو صاحب هذا الاسم وأنه كتب هذه الرسالة ليبرر الرد عليها موضحا أهمية تأسيس حزب عمالى.. راجع فى هذا الصدد معلومات عن تحقيقات النيابة فى: الأهرام ١٧ - ٦ - ١٩٢٥

المحترم رئيس تحرير جريدة العمال والفلاحين الغراء.. كنت قد قرأت فى أيام الانتخابات.. أن البوليس ضبط منشوراً انتخابياً كانت تطبعه «لجنة الدفاع عن حقوق العمال والفلاحين».. ثم لم نعد نسمع شيئا لا عن ذلك المنشور الذى يحتوى بلا شك على خلاصة مطالب الطبقة العاملة ولا عن تلك اللجنة التى أتذكر أن حضرة «رفيق جبور» المشرف على جريدة الحساب والمعروف بمدافعته عن الطبقة العاملة كان رئيسها أو سكرتيرها.. فهل ماتت هذه اللجنة قبل أن ترى النور..؟

وأنى يحق لى أن أتساءل بحق باعتبار أنى رجل قد خصصت نفسى وحياتى للطبقة العاملة المظلومة. لماذا لا تبذلون جهودكم فى سبيل انشاء حزب للطبقة العاملة، مع أن جميع الوسائل متوفرة لديكم من وجود جريدة تحت تصرفكم وجموع كبيرة من العمال تثق بكم ثقة لا حد لها على ما أعلم. لم لا توجهوا الدعوة للمفكرين من الطبقة العاملة إلى إنشاء حزب عمال يدافع عن حق الطبقة العاملة المهضوم ويجاهد فى سبيل تحسين حالتها.

أنى أقدر الجهود التى تبذلها جريدة الحساب فى سبيل الطبقة العاملة، ولكن عملها سيبقى ناقصا وغير مثمر مادام لايوجد حزب عمال يتدرج ويقوى مع الزمن ويتسلم بيديه الحديديتين حقوق ومطالب العمال.

فما قولكم دام فضلكم؟» (٢٣)

.. وهكذا تتضح الخطة.

فرفيق جبور يلجأ إلى أسلوب معروف فى صحافة هذا العصر، وهو أن يصطنع رسالة ليمهد بها السبيل لمناقشة موضوع ما..

والحزب الشيوعى الذى تحول سريعا إلى السرية، يحاول أن يتخذ من جريدة الحساب سبيلا للدعوة لتأسيس حزب علنى جديد يكون اسمه «حزب العمال والفلاحين»..

.. وتعقيبا على الرسالة يكتب رفيق جبور تحت عنوان «تأسيس حزب للطبقة العاملة من عمال وفلاحين».

---

(٢٣) الحساب ١ - ٥ - ١٩٢٥

ونلاحظ هنا أن الحزب قد بدأ ومنذ عام ١٩٢٤ فى استخدام عبارة متكاملة هى «الطبقة العاملة من عمال وفلاحين» وذلك كى يوسع دائرة خطابه ليشمل أغلبية السكان ولايقصر تواجده فى صفوف الطبقة العاملة التى كانت محدودة العدد، ولاشك أن هذا التعبير المبدع يمثل قدرة فائقة على التكيف مع الواقع وعلى تطويع الفكر ليتلاءم مع الواقع المصرى..

.. ويبدأ المقال ليتجه مباشرة ـ كعادة رفيق جبور ـ نحو لب الموضوع.

«أن أهم موضوع عالجناه حتى الآن وقد يكون أهم موضوع نعالجه فى المستقبل هو موضوع ذلك الاقتراح الذى أرسله إلينا «محمد صديق عنتر» ونشرناه فى العدد السابق».

ثم يحدد المقال ثلاثة أسئلة مهمة يتعين الاجابة عليها بوضوح..

«هل الوقت مناسب الآن لتأسيس حزب للطبقة العاملة فى مصر؟

ثم ممن يجب أن يتألف هذا الحزب؟ وما هى مراميه وأغراضه ومبادئه وما يجب أن يكون عليه برنامجه؟

واجابه على السؤال الأول يقول رفيق جبور قائلا..

«لايخفى أن الاستعمار يقوى شيئا فشيئا الآن. لا فى مصر بل فى جميع أنحاء العالم، وأقدام المستعمرين أكثر رسوخا فى مستعمراتهم اليوم مما كانت عليه بعد الحرب العظمى لأن الحرب التى نبهت الضمائر إلى مطالب سياسية واجتماعية كانت الطبقة العاملة غافلة عنها فيما سبق، والتى أيقظت طبقة طال سباتها قد أنتجت عقب انتهائها حركة فكرية عظمى وسلسلة ثورات واضطرابات ومظاهرات واعتصابات لم ينس القارئ بعد أمرها وقد عمت تلك الحركة جميع أفراد الطبقة العاملة فى كل البلدان..

فالاستعمار هوجم بعد الحرب من كل ناحية، وكان مهاجموه هم أبناء الطبقة العاملة فى البلدان الاستعمارية وأبناء شعوب المستعمرات، فأهتزت أركان الاستعمار وتزعزع بنيانه، الا أن هذه الحركة ما لبثت أن همدت فى كل مكان وأخذ الاستعمار يسترجع قواه، ولما تقوى بدأ يهاجم هو نفسه مهاجميه بالأمس.

لكن الاستعمار الذى عاد إلى النمو والنشاط لن يستمر متابعا نشاطه.. بسبب الخلافات العظيمة التى تقوم من آن إلى آن بين الدول الاستعمارية نفسها من جهة، وجهاد الطبقة

العاملة فى الدول الاستعمارية من جهة أخرى».

وبعد هذه المقدمة النظرية.. الواضحة والدقيقة والتى توحى بسعة اطلاع على النظرية الماركسية اللينينية يتحدث المقال عن مصر مؤكدا نهوض مصر مرة أخرى ضد الاستعمار.. ويقول:

«أن مصر تعانى من شدة وطأة الاستعمار وترزح تحت نيره الثقيل لا لأن المستعمرين يضطهدونها ويستبدون فى تصريف شئونها فحسب، بل لأن زعماء الحركة الوطنية أنفسهم لم يحسنوا التصرف عندما هبت هذه الأمة النشيطة مطالبة بحقوقها ومدافعة عن استقلالها وحريتها، فهم اغتنموا فرصة نهوضها ليضعوا أنفسهم فى مقدمة الصفوف وعلى رأس القيادة».

ثم يقول «أن الشعوب قد تنهض أحيانا للدفاع عن فكرة مبهجة، وقد تندفع وراء الزعماء دون أن تسألهم عن تحديد مطالبهم وعن مقاصدهم ورغباتهم بعد فوزهم، ولكن ذلك لايدوم طويلا، ولا تلبث تلك النهضة أن تخمد، وذلك الاندفاع أن يقف، ثم يعود القهقرى».

.. ولكن المقال يؤكد أن الهزيمة قد حاقت بالوفد وليس بالشعب فلن يتمكن الاستعمار «من قتل روح الشعب الناهض ومن القضاء على الحركة الوطنية الباهرة».

.. ثم يصل المقال إلى الحقيقة التى أراد أن يركز عليها الضوء «لقد تقهقرت الحركة الوطنية منذ أن خرجت من يد الطبقة العاملة من فلاحين وعمال وتسلمتها الطبقة الخاصة من الباشوات وأرباب الأموال والأراضى فكان هؤلاء قد أنضموا إلى الحركة بدافع مصلحتهم الخاصة، فبعضهم خاف نجاحها وانتقام أربابها منه، وبعضهم رأى الاندفاع فيها جرا لمغنم وطمعا فى منصب، وبعضهم إنساق مع التيار غصبا عنه، وبعضهم رأى الفرصة مناسبة لتسويد نفسه وجعله ذاته زعيما».

ويمضى المقال ليؤكد أن الطبقة العاملة المصرية لايمكنها أن ترتهن قضية الوطن لدى هذه الحفنة من الزعماء المتاجرين بقضية الوطن.. ثم يؤكد «للطبقة العاملة مطالب معروفة محددة وهى تريد الانضواء تحت راية الحزب الذى ينيلها مطالبها ويدافع عنها، وقد عرفت

أنه لا فائدة ترجى لها من الأحزاب الحاضرة.

فيجب أذن أن تنشئ لنفسها حزبا خاصا بها..

وهنا علينا أن نلفت الأنظار إلى أن مثل هذا الحزب لن يكون مثل اتحاد النقابات العام فيخلط بين الهيئتين لمجرد كون كل منهما مؤلف من العمال، فاتحاد النقابات هيئة اقتصادية لها غايات ومطالب خاصة، وحزب العمال هيئة سياسية لها غايات ومطالب خاصة أخرى» (٢٤)

ولا بد لنا ان نلمس تلك اللمحة الذكية التى ربطت وباقتدار بين القضية الوطنية واهمية تأسيس حزب عمال يستطيع ان يخوض غمارها مدافعا وبصدق عن مطالب الوطن العربى وليس عن مصالح طبقة بعينها كما فعل الزعماء من ابناء الطبقات العليا فى المجتمع.

والآن يأتى الدور للاجابة على السؤال الثانى .. ممن يجب أن يتألف هذا الحزب؟

يجيب على هذا السؤال رفيق جبور بمقال جديد .. يحلل فيه وباقتدار الأوضاع الطبقية فى مصر ..

«مصر الآن فى طور الانتقال من عهد الاقطاعات إلى عهد الرأسمالية .. أى أن مصر ترى الان تحول أصحاب الاطيان الى رأسماليين واصحاب عمل وأرباب محال صناعية وتجارية».

وهو بهذا يؤكد فكرة انهك الشيوعيون المصريون واليسار المصرى وقتهم وجهدهم حتى أمكنهم التوصل اليها مؤخرا وهى أن الرأسمالية المصرية قد خرجت من رحم كبار الملاك العقاريين وأن ذلك قد اكسبها صفات خاصة وتشوهات خاصة.

ثم يلمح المقال وبذكاء أيضا تطورا جديدا فى بنية كبار الملاك ..

«ان اصحاب الاراضى الواسعة والتفاتيش بعد أن كان يؤجر تفتيشه إلى الفلاحين قطعا صغيرة .. أصبح اليوم وقد عدل عن ذلك، وأتبع طريقة اخرى هى إستحضاره الآلات الزراعية على نفقته وإستئجاره الفلاحين بأجر معين ليستغل أرضه بنفسه على حسابه مما

(٢٤) راجع النص الكامل لهذا المقال فى د. رفعت السعيد - ثلاثة لبنانيين فى القاهرة - دار الطليعة بيروت (١٩٧٣) - ص١٨٥ وما بعدها - ونقلا عن الحساب ٨ - ٥ - ١٩٢٥

يجعل عمله ذاك أقرب الى عمل صناعى منه الى عمل زراعى، فها أنت ترى فى أرض السراى آلات بخارية يسيرها عمال مأجورون حتى يخال لك أنك فى ورشة صناعية الا ان انتاج هذه الورشة غلال وحبوب لا بضائع، وهذا من علامات تحول عهد الاقطاعات الى عهد الرأسمالية وتحول الاقطاعيين إلى رأسماليين .. وهكذا يتحول الفلاحين من زارعين إلى عمال .. فإذا كان لا يوجد إلى الآن فى المدن طبقة عاملة كبرى، فانه يوجد فى الأرياف طبقة عاملة تنمو وتكبر مع الوقت».

ونتوقف أمام هذا التحليل العلمى الدقيق والمبسط والخالى من التعقيد لعملية تحول علاقات الانتاج من اقطاعية وشبه اقطاعية إلى الرأسمالية أو شبه الرأسمالية.

واذا كانت الطبقة العاملة فى المدينة قليلة العدد فان رفيق جبور يلاحظ ايضا «أنه ليس عندنا كذلك طبقة أصحاب أعمال كبيرة، اللهم إلا طبقة كبار مساهمى ومديرى الشركات الاجنبية الكبرى، وهى طبقة لا تزال صغيرة العدد، ووجودها قد أوجد بذاته طبقة عمال صغيرة وكلما نمت الطبقة الاولى كلما نمت الطبقة الثانية».

وبعد هذا التحليل يجيب رفيق جبور على السؤال: ممن يجب أن يتكون الحزب؟

«وحزب العمال المصرى السياسى يجب أن يتألف من مختلف طوائف عمال المدن ومن عمال الارياف الذين يشتغلون فى الزراعة وتوابعها على أن تكون هاتان الطبقتان طبقتا عمال المدن وعمال الارياف هما اساس وأركان وجدران الحزب وبعد ذلك لا بأس من قبول بعض أبناء الطبقات الاخرى الذين لا يتنافى وجودهم مع الغاية التى انشىء الحزب من أجلها».

وأيضا .. «أن فى مصر عدد كبير من الناشئة الجديدة المتعلمة «المثقفين الثوريين» وهى لا تجد أمامها عملا لها إلا فى الوظائف الحكومية لأن الصناعة غير متقدمة .. ولأن المعامل التجارية بيد الأجانب الذين لا يستخدمون إلا أجانب مثلهم .. ولا يخفى أن هذه الناشئة المتعلمة متى كانت من ابناء غير الأغنياء تميل بطبيعتها وبدافع من مصلحتها نحو الطبقة العاملة أكثر مما تميل نحو آية طبقة أخرى، ولذلك فيجب أن تندمج فى حزب العمال

وتكون من اشد اعضائه نشاطا وفائدة.

وعندنا ايضا طبقة الفلاحين الفقراء وطبقة الفلاحين المتوسطى الحال من أصحاب الاراضى الذين لا يملكون إلا عدداً قليلاً من الأفدنة .. وهؤلاء يندمجون فى حزب العمال.

ثم أرباب الصناعات الصغيرة وأصحاب المهن الذين يعملون بأنفسهم دون استخدام سواهم فى اشغالهم وهؤلاء يؤلفون طبقة لن تعيش طويلا، لان تقدم الصناعة واستخدام الآلات البخارية والكهربائية سيقضى عليها ويحول أربابها إلى صناع مأجورين، وهذه الطبقة وإن كانت قد عاشت إلى الان فى مصر فذلك لوجود الاحتلال الأجنبى الذى يقاوم تقدم الصناعة».

ويمضى المقال ليلخص ذلك كله مؤكدا أن حزب العمال الذى يدعو إلى تأسيسه سوف يفتح صدره ويضم فى صفوفه خمس طبقات أو فئات: عمال المدن ـ عمال الريف ـ فقراء الفلاحين ـ المثقفين الثوريين ـ الحرفيين وصغار المنتجين الصناعيين ـ الفلاحين المتوسطين.

ولكن رفيق جبور لا يترك الأمر عند هذا الحد بل هو يعود ليؤكد فى حسم واضح:

«إلا أن العمود الفقرى للحزب ودماغه المفكر وقلبه النابض يجب أن يكون من العمال، وعلى قانون الحزب الاحتياط الشديد لعدم تمكين بعض افراد الطبقات الاخرى التى تندمج فى الحزب من السيطرة عليه والتلاعب بمصالحه، بل يجب أن يكون الحزب حزب عمال للعمال ومن العمال، أما من ينضم إليه من ابناء الطبقات القريبة جدا من الطبقة العاملة .فيجب أن يبقى دائما تابعا إلى حد ما. لكن على كل حال يجب أن تكون وتبقى السيطرة فى الحزب للعمال وحدهم.

والآن ما هى مرامى الحزب وأغراضه؟

هذا ما ستتكلم عنه فى العدد الآتى» (٢٥)

(٢٥) الحساب ١٥ - ٥ - ١٩٢٥

ولكن «العدد التالي» لا يأتي:

فاذا كان الحزب الشيوعي قد اخذ الامر مأخذ الجد، وتوصل إلى فكرة تأسيس حزب علني عمالي واسع التمثيل الاجتماعي، واذا كان قد امتلك فهما راقيا وواعيا للوضع الطبقي في مصر، وتحليلا مصريا خالصا للطبقات واتجاه تطورها، فان الامر جد، ولا يحتمل الانتظار، وكالمعتاد يأتي المؤشر من الصحف الانجليزية عبر جريدة الأهرام فتنشر الاهرام نقلا عن الديلي كرونيكل تلغرفا لمراسلها بالقاهرة قال فيه «قامت الدلائل على وجود مؤامرة بلشفيه واسعة النطاق لتدبير ثورة شيوعية في مصر تكون جزءا من مشروع يرمى إلى اثارة افريقيا كلها في وجه الدول الاستعمارية» (٢٦)

وأصبح المسرح مهيئا لحملة قبض جديدة.

«فبكر بوليس القاهرة والاسكندرية امس حوالي الفجر بأمر النيابة العمومية ففتش في المدينتين في احيائها المختلفة مساكن طائفة كبيرة من الاشخاص الوطنيين والاجانب المشتبه في انتمائهم الى الشيوعية .. واعتقل منهم حوالي ١٥ شخصا في سجن الاستئناف في القاهرة، ونحو هذا العدد في سجن الحضرة في الاسكندرية» (٢٧)

وكان رفيق جبور .. والشيخ شاكر عبد الحليم وغيرهما من الكوادر الحزبية العاملة في جريدة «الحساب» من المقبوض عليهم .. وأغلقت جريدة الحساب بقرار وزارى بسحب ترخيصها.

.. وفي ٨ سبتمبر ١٩٩٢٥ يصدر قرار الاتهام ليتهم:

«رفيق جبور سن ٣٣ سنة ـ مولود بجبل لبنان .. وآخرين بأنهم:

ـ اتفقوا مع اخرين على ارتكاب الجنايات والجنح الا وهي: جنايات القتل العمد ونشر الافكار الثورية المغايرة لمبادىء الدستور المصرى الاساسية، وتحبيذ تغيير المبادىء الاساسية للهيئة الاجتماعية بالقوة والارهاب وبوسائل اخرى غير مشروعة .. وجنح انتهاك حرية ملك الغير.

---

(٢٦) الأهرام ٢ / ٦ / ١٩٢٥

(٢٧) الأهرام ٣ / ٦ / ١٩٢٥

ـ اشتركوا جميعا فى اتفاق جنائى الغرض منه ارتكاب جريمة تأليف عصابة من العمال وصغار الفلاحين لمهاجمة طائفة من السكان.

ـ نشروا وهو متفقـون جميعا على ذلك افكارا ثورية مغايرة للمبادىء الاساسـية للهيئة الاجتمـاعية .. ساعين لالغاء نظام الملكيـة الفردية المقرر فى دستور الدولة واسـتبداله بنظام شيوعى بطريق الثورة والقوة والتهديد.

والفوا لهـذا الغرض حـزبا اسموه الحـزب الشيوعى المـصرى .. واخذ الحـزب المذكور ينشر دعوته الضارة المذكورة بالطرق العلنية بين العمال وصغار الفلاحين وغيرهم. (٢٨)

وقد واجه رفيق جبور هذا العنت شامخا وشجاعا بصورة لفتت الانظار .. وبرغم أنهم خلال عملية التفتيش لـم يضـبطوا لديه أية أدلة، الأمر الذى دفعه إلى أن يتهكم على ضباط البوليس «لا تفتشوا عن شىء فأنا لا امتلك سوى قلمى فهل تضبطونه» برغم ذلك فقد قدم إلى المحاكمة على رأس المتهمين.

وفى المحكمة ارتفع صوته عاليا عن افكاره الأمـر الذى أعاد للأذهان صورته فى مخيلة ابنه روفائيل الذى شـاهده «مرارا يخطب فى الساحات واقـفا على ظهر الترامـواى بعد أن يكون الجمهور قد أوقف السير فى الشوارع الرئيسية».

وعندمـا حكمت عليه المحكمـة ـ برغم عـدم وجوية آية أدلة ـ بالسـجن سـتـة اشهـر ثم ابعاده بعد تنفيذ مدة العقوبة عن مصر، صاح فى وجه القضاة صيحة تشبه صيحة ديمتروف التي رددها فـيمـا بعد فى وجـه النازى «سـأعود حـتمـا إلى مـصر، سـأعود عندمـا تكون مشانقكم قد عقلت فى ميدان المحطة».

وبعد سـتة اشهـر فى السجن نفى إلى لبنان هو واسـرته ويتذكر ابنه روفـائيل أن شرطة خفر السـواحل رافقت المركب الذى نقله من بورسعيدٌ مـسافة عشرين ميـلا .. وكان رفيق جبور يضحك فى اسى قائلا «هل يظنونى سأعود إلى مصر سباحة».

وتصل المركب الى قبرص، وتـسمح السلطات البريطانية هناك لجميع الركاب بالنزول من المركـب الا رفيق جبور واسرته، وفى بيروت كـانت الشرطة الفرنسية بانتظاره على سلم

(٢٨) قرار اتهام مقـدم من النيابة العمومية لحضـرة قاضى الاحالة بمحكمة مصر الأهليـة فى قضية الجناية رقم ٨٢٧ شبرا لسنة ١٩٢٥ - نسخة أصلية.

المركب فترك عائلته فى فندق ثم اصطحبوه لمقابلة الكولونيل كاترد الذى حذره من ممارسة أى نشاط سياسى.

وفى زحلة يلتقى رفيق جبور بأمه، التى تبكى طويلا وتستحلفه أن يحلق ذقنه وأن يكف عن الاشتغال بالسياسة، ويحلق رفيق ذقنه إرضاء لأمه .. لكنه يواصل النضال.

واذ تحاصره عيون البوليس الفرنسى فى زحلة وتحصى عليه تحركاته، وتمنعه من أى نشاط فانه يسافر إلى فلسطين مستعينا بروح أممية لا ينضب معينها ويبدأ هناك رحلة نضال جديدة، فيرأس تحرير صحيفة «فلسطين» لصاحبها عيسى العيس، ويواصل على صفحاتها معاركه ضد الاحتلال الانجليزى، وضد الصهيونية مدافعا كما كان دوما عن العمال والفلاحين .. لكنه لا يبقى فى فلسطين طويلا .. فبعد اشهر دخل المستشفى الفرنسى فى يافا لاجراء جراحة بسيطة وتوفى اثناء العملية.

ويقول ابنه «وقيل ان المخابرات الانجليزية تآمرت على حياته للتخلص منه، ومما أيد هذا الشك لدى أهله رفض السلطات الانجليزية التصريح بنقل الجثمان الى لبنان خوفا من تشريحه هناك .. ودفن فى يافا» (٢٩)

وهكذا تصل الرحلة الى نهايتها ..

رحلة مناضلة أممى وعربى شجاع ولد فى زحلة . وناضل بالقاهرة .. ودفن فى يافا.

وتبقى كلماته وابداعاته الفكرية وخطابه السياسى الواضح والبسيط دروسا لنضال ثورى مصرى لا ينقطع، مثقف استطاع وبشكل نادر ان يتحدى الابرة وثقبها وان ينطلق دون قيود .. ليجد ان القيود تكبله وتقوده الى السجن .. ثم الطرد من مصر.

---

(٢٩) النهار - رسالة من روفائيل جبور - المرجع السابق.

سلامه موسى
أول الموسوعيين المصريين
آخر الموسوعيين المصريين

«ومع أنى فى كتاب هؤلاء علمونى قد ذكرت نحو عشرين من الادباء والعلماء والمفكرين الذين وجهوا نشاطى الذهنى وربوا نفسى، فإنى لم اذكر معهم كارل ماركس داعية الاشتراكية، والان احب ان اعترف انه ليس فى العالم من تأثرت به وتربيت عليه مثل كارل ماركس، وإنما كنت اتفادى ذكر اسمه خشيه الاتهام بالشيوعية، .. ولو كنت قد وجدت الحرية أيام الحكومات الملوكية السابقة لألفت عن الاشتراكية بما كان يوجه ويرشد».

تربيه سلامه موسى ـ ص٢٩٠ »

الاب كان موظفا مرموقا «رئيس تحريرات مديرية الشرقية» وكان من ثم ميسور الحال والفتى «سلامه» يقرأ كثيرا، يتفجر حيوية وسعيا نحو المعرفة، لكنه بقدر حبه للمعرفة المنطلقة بعيدا عن آية قيود، بقدر ما تعثر فى دراسة المدرسية المنتظمة والمقيدة بقيود مناهج كان يراها ضيقة الافق.

تعثر الفتى فى دراسته حصل على الشهادة الابتدائية بالكاد .. وهو فى السادسة عشر من عمره عام ١٩٠٣ «ولد عام ١٨٨٧» والتحق بعد ذلك بالتوفيقية الثانوية ثم الخديوية الثانوية، لكنه لم يطق صبرا، نحى الكتب المدرسية جانبا وانطلق يشقف نفسه بنفسه وفق هواه .. وليس وفق المناهج الدراسية.

إنغمس الفتى فى قراءات متنوعة متعددة المنابع قرأ لرفاعه الطهطاوى وفرح انطون وشبلى شميل واحمد لطفى السيد ومحمد عبده .. والتهم مجموعات كامله من الجامعة والمقتطف والهلال .. .إلخ.

يعتمد الفتى على ميراثه من أبيه الذى تـوفى سريعا تاركا إياه فى الثانية من عمره، وهو ميراث من عديد من الافدنة أسماها الناس «عزبة» كانت تدر عليه إيرادا شهريا حوالى ٣٠ جنيهـا، وهو مبلغ كبير بمعاييـر هذا الزمان، فعاش الـفتى مرفهـا، خالى البال، وامـتلك ما يكفيه ويكفى ما يريد شراءه من كتب .. بل ويكفـيه كى ينطلق وهو فى العشرين من عمره «١٩٠٧» إلى باريس. هناك عاش الحياه البـاريسية الثقافية بطولها وعـرضها .. تعرف على جريـدة «الاومانيـتيـة» (جريدة الحـزب الاشتـراكى ثم الشيـوعى فيـما بعـد) وتلقن افكار الاشتراكـية والعدل الاجتمـاعى، وهناك طالع ـ وربما لأول مرة ـ كتبا ودراسـات عن مصر الفرعونية، انسكبت فى اعماقه حاله من العـشق الفرعونى، وكثيرا من الدهشة: كيف يهتم الغربّ بدراسـة آثار وأمجاد وحـضاره الفراعنة، بينمـا يتجاهلهـا المصريون .. ومن باريس يعود مـباشرة الى الصـعيد ليـمضى هناك شـهرين كاملين يتـأمل فيهـما أمجـاد أجداده .. ويضيف إلى هجائيته بندا جديدا .. الفرعونية.

هو الآن: مثقف، موسوعى، اشتراكى، فرعونى.

ثم يتـراكم حـوله لوم الأقارب، مـادمت تقـرأ وتدرس فلمـاذا لاتحصـل على شهـادة؟ ويسافر إلى لندن بأمل أن ينتظم فى دراسـة أكاديمية ليحصل على ليـسانس الحقوق.. لكنه لايلبث أن يتـرك ذلك كله منغمـسا من جـديد فى قراءات لاتنتـهى.. قراءات تتشـعب فى مختلف المجالات.. فتسمح له أن يكتب مقـالات شديدة التنوع: القهوة وتاريخها، العلاقة بين الفرس والعرب، الفولكلور، الكلب وآثره فى الادب العربى، السحر وتأثيره فى العقل المصـرى.. الحـزن عند المصـريين، الزواج وفـوائده، ويردد فى ذلك كله وفى غـيـره أفكاراً طالعها لمالتس وداروين ونيـتشه وغاندى وسبنسر وهافلتـوك وبرنارد شو، وويلز وعشرات آخرين من الفلاسفة والمفكرين.

ويتسلح سلامه مـوسى بوقت وافر.. ومعرفة وثيقة بالفرنسـية والانجليزية.. وقدره على العيش الهـانئ، فينطلق ليقدم لمصـر أول نموذج ـ وربما آخر نموذج ـ لموسوعى مصـرى فتح نوافذ الفكر المصرى على مختلف مجالات المعرفة الانسانية.

وبينما هو فى لندن أنضم إلى جـمعيتين «جمـعية العقليين» وفيـها تعرف على داروين

وسبنسر، و«الجمعية الفابية» وفيها تعرف على النكهة الفابية فى الفكر الاشتراكى، وتعرف على برنارد شو وأصبحا صديقين [وكان أول ما جذبه إلى شو دفاعه عن ضحايا دنشواى].

ويواصل الفتى قراءات متعددة، متناقضة، متشعبة وتتمدد قراءاته حتى تصل إلى كروبتكين فترجم له فيما بعد «نداء إلى الشباب».

الآن.. تجهز الفتى. علما وافراً. معرفة موسوعية. متناقضة فى بادئ الأمر، بل ومتخبطه.. لكنه آثر ان ينطلق كجواد جامح فى بحار المعرفة الانسانية، وان يسكب ذلك كله فى ساحة الوطن.. بأمل أن يفتح مغاليق العقل المصرى على كل روافد الفكر.. صحيحه وخاطئه..

• البداية.. نيتشه:

وكان أول كتاب يصدره «مقدمه السوبرمان» [١٩١٠] وكان فى الثالثة والعشرين من العمر. وفيه ردد مزيجا مثيراً للدهشة من أفكار نيتشه وأفكار ماركس.

فهو يردد فيه أفكاراً عنصرية، ناصحا المصريين أن يتزوجوا من أجنبيات حتى يحسنوا نسلهم، وفيها يؤيد سياده الرجل الأبيض على الزنجى «فالزنجى كان منذ مائة عام فقط يأكل أخيه الانسان، ومن المستحيل ان تكون مشاعره كمشاعرنا مهما طلى نفسه بآداب السلوك».

والانسان السليم والقوى هو الذى يستحق أن يعيش أو على الأقل هو الذى يسمح له بأن ينجب أطفالا.. «فالرقى الذى نجده فى كفايات الحيوان إنما لأنه يقوم بقتل الضعيف أولا بأول، فلا يبقى غير الأقوى الذى ينسل نسلا على غراره، حاصلا على كفاياته. والإنسان كالحيوان، لكنه يختلف عنه من حيث أن نسله العاجز يعيش، فالغزال الأعرج يموت، والأسد البطئ يهلك جوعاً فى الغابة، ولكن الإنسان الأعرج يعيش بالصدقة، والانسان البطئ يعيش بأى عمل هين» ولهذا فهو يطالب بأن «نقصر الزواج على الفئات السليمة فى الأمة، ويمكن ايضا اللجوء إلى التعقيم الاختيارى» [ط٣ - ص٩].

ثم يقدم طاقما من أفكار غريبة لعلها أيضا انعكاس للنيتشويه.. «فالأخلاق يجب أن

تكون حرة، لأن حرية الأخلاق تدعو إلى إنقراض الفاسد منها وبقاء الصالح.. وليس من مصلحة الإنسان أن يعيش فى قفص من الواجبات الأخلاقية، لأن من طبيعة الأخلاق الفاسدة انها تقتل صاحبها، فلنترك السكير يسكر كما يشاء لأن سكره ينتهى بموته المبكر، ولنترك النهم يشره إلى كل طعام فإن معدته تسوقه إلى قبره».

وفى «مقدمة السوبرمان» يقدم أيضا تصوراً مثيراً للدهشة حول الدين فهو ينتقد «الأديان الراهنة لأنها تتدخل فى أمور العالم وتعرقل سير الترقى.. لأن الرقى يقتضى التغير، ولا تغيير بغير بدعة جديدة.. ولكن الأديان للصفة المقدسة التى تتصف بها تقف جامدة لاتقبل تغييراً فتعمل بذلك لجمود الأمة» ثم «والدين اذا خرج من دائرة علاقة الإنسان بالكون، وأخذ يقرر أصول المعاملة بين الناس من تجارة وزواج وإمتلاك وحكومة ونحو ذلك فإنه عندئذ يقرر الموت لكل من يؤمن به». لكنه مع ذلك يؤكد وبوضوح تام «ان الدين ضرورى لكل أمة ولكل فرد.. ولايمكن أن يعيش الإنسان بلا دين، لأنه مادام قد شرع يفكر فى الكون زمانا ومكانا فقد شرع يفكر فى الدين. ومن ينظر إلى السماء فى ليلة صافية، ويتأمل فى أبعاد النجوم والكواكب يعجب كيف يمكن لانسان أن يجزم بهذا المذهب أو بذاك عن أصل هذا الكون ونهايته». [ص٢١].

وفيما بعد كتب سلامه موسى مقالا منقولا عن ويلز بعنوان «اديب ينشد ربه» يتحدث فيه عن دين جديد يؤمن بوجود الله، لكنه إله «لا وجو د له من حيث المادة أو الفضاء، لكن له وجودا زمنياً كوجود التيار الفكرى وهو ينمو بنمو الإنسان، يتطلع بأعيننا إلى هذا الكون ويعمل بأيدينا فيه، وكل ما لنا من حقائق، وكل مالنا من قصد أو عمل عظيم يجمعها فى نفسه.. فهو الذاكرة الإنسانية التى لاتموت وهو الإرادة الانسانية الدائبة فى الازدياد.. وليس للديانة الجديدة وحى وليس لها مؤسس.. ومن ينشدها ينشد حقيقة لا يرشده إليها غير ما فى نفسه من القداسة» [مختارات سلامه موسى. ط٢. ص٢٢].

وفى خضم ذلك كله يتحدث فى مقدمة السوبرمان عن الإشتراكية فيقول: «والعلمانية نزعه أوروبية تشمل جميع الأمم المتمدينة تقريباً.. وهذه النزعة هى علة نزعات أخرى منها

الاشتراكية التى انتهت فى أوروبا بالشيوعية، وليس فى العالم قطر متمدين إلا وبه حركة اشتراكية تدل على أن العالم يتجه نحو نظام اشتراكى. ان لم يكن فى جميع صناعاته ففى نحو النصف أو الثلثين» [ص٦].

• فابيه أم.. تقية؟

والحقيقة أن قراءات واسعة متعددة الجوانب لابد لها أن تنعكس على فكرته عن الاشتراكية، فهو يصوغ اشتراكيته مغلفة أو مغموسة فى بحار هذه القراءات المتعددة الاتجاهات والمتلاطمة الأمواج.

ويحاول البعض أن ينسب فابيه سلامه موسى إلى إنتسابه إلى جماعة الفابيين.. لكننى أعتقد أن مكونات عديدة افرزت هذا النمط من «الفابيه»:. أولها هذا الفيض من القراءات المتنوعة والمتعاكسة، وهناك أيضا خوفه أو عدم رغبته فى التصادم [ثمة قصة رواها صديق له: كان عائداً فى إحدى رحلاته من أوروبا عام ١٩٥٠، وكان يقرأ كتاب رأس المال لماركس فى السفينة وكان لقلقه وخوفه من وجود جواسيس حتى على السفينة يلقى فى البحر بكل ورقة يقرأها بمجرد الانتهاء منها» [محمود الشرقاوى - سلامه موسى المفكر والإنسان - ص٤٤٠]. وهناك كذلك المهرب التقليدى من ضغوط الأمن خاصة فى زمن الاحتلال: فهو فابى تماما مثل حزب العمال البريطانى.. الذى كان يحكم أحيانا فى هذه السنوات.. وربما كان فى الأمر إحساساً بأن الفكرة الاشتراكية الصافية يصعب تقبلها من جانب العقل المصرى الذى كان سلامه يمتلك عليه ملاحظات سلبية كثيرة.

وبإختصار سأورد بعضا من كتابات سلامة موسى عن الاشتراكية.. فليقرأها القارئ واضعا فى إعتباره كل هذه العوامل متفاعلة معاً.

وفى مقدمه كتابه «الاشتراكية» [١٩١٣] يقول: «يدعونى إلى كتابة هذه الرسالة الوجيزة كثرة السخافات والغباوات التى تحكى عن الاشتراكية.. فغرضى الأول منها تنوير الرأى العام عن ماهيتها» ثم يقول «ولست طامعاً أن تعد هذه الرسالة دعوة للجمهور إلى الاشتراكية ولا أن تكون سببا فى تأليف حزب أو جمعية، ولكنى أطرحها أمام الجمهور

عسى أن تكون خميرة تختمر بها الأفكار إلى حين تستعد البلاد للإشتراكية» [ط٢ - ص٥].

لكنه وأيا كانت المبررات فإننا لانجد مفراً من القول بسذاجة الفكرة الاشتراكية عند سلامه موسى.. ونقرأ له: «وعندنا الآن من الأعمال التى تعملها حكومتنا ما هو إشتراكى النزعة مثل مصلحة السكة الحديد الأميرية.. فإن هذه المصلحة تدار الآن لفائدة الأمة ويجمع الفائض من إيراداتها ويصرف على مرافق الأمة» [ص٢١].

ثم: «وعندنا أيضا بلديات كثيرة توزع المياه والضوء على سكان المدن، وتنشئ المتنزهات العمومية، وتؤلف الجوقات الموسيقية للذة الجمهور» [ص٢٢].

واذا كان الأمر كذلك.. «فإن غاية مايطلبه الاشتراكى ان تتدرج البلدية من امتلاك المياه والضوء كما هو حاصل عندنا الآن إلى إمتلاك الأراضى والمعامل والمناجم وتديرها كما تدير هذه السكك الآن» [ص٢٢].

وحتى ذلك يطلبه الاشتراكيون «على سبيل التدرج الوئيد لا الطفرة السريعة، وكل خطوة نخطوها نحو الاصلاح الاشتراكى تكون مصحوبة دائما، بل ومتوقفه على درجة التنوير السارية فى الأمة» [ص٢٢].

أما الريف فقد أعد له سلامه موسى برنامجاً مثيرا.. «فبدلا من ان يحكم القرية عمدة ليس لأهلها رأى فى تعيينه يحكمها مجلس منتخب.. ويعين هذا المجلس خفراء القرية وقاضيها ومهندسها وطبيبها.. وتؤسس المدارس الزراعية العالية فلا يشتغل فى الأرض الا من نال شهادة منها» [ص٢٠].

واشتراكية سلامة موسى لاتعرف الثورة.. ولاتقبل بها.. فهو يعدد اعتراضات البعض على الاشتراكية ويقول: «ومن الاعتراضات أيضا القول بأن الاشتراكيين ثوريون ينوون الاستيلاء على الحكومة عنوة ويعملون بعد ذلك على مصادرة الأملاك ومطاردة الأغنياء، فإن هذا الكلام أولى أن ينسب إلى تخبط المعتوهين منه إلى تفكير العقلاء، وجهاد الاشتراكيين فى الانتخابات البرلمانية دليل على أنهم يدخلون البيوت من أبوابها.. ويريدون الوصول إلى أغراضهم بالوسائل الشرعية» [ص٢٨].

أما موقف الاشتراكية من الدين فيقول عنه «ومن الاتهامات ايضا أن الاشتراكيين ضد الدين ينوون إلغاءه عندما يستولون على أزمة الحكومة.. وهذه فرية لا أساس لها.. فإن الاشتراكية تضم بين دعاتها المؤمن والمعطل، والمسيحى والمسلم واليهودى على السواء.. وهى قبل كل شئ نظام مالى لا دخل له فى الدين» [ص٢٨].

وهكذا وكما أن ماء البحر لايمكن فصل ماءه عن ملحه الا بعملية تبخير. فإن اشتراكية سلامة موسى تحتاج إلى عملية تحليل متأنية حتى يمكن فهمها فى إطار الظرف الموضوعى لعام ١٩١٣

• السياسى

.. وفى اغسطس ١٩٢١ يعلن الحزب الاشتراكى المصرى ويكون سلامة موسى واحداً من أربعة وقعوا بيان تأسيسه.

ولكن سلامة موسى كان من فرط فابيته يسعى لتأسيس جمعية وليس حزباً، فينشر فى الأهرام مقالاً يقول فيه «اجتمع عدد غير قليل من الاشتراكيين المصريين، واكثرهم من الذين عاينوا بأنفسهم النضال القائم فى أوروبا بين رأس المال والعمل وقر رأيهم على تأليف جمعية تضم شملهم وتمكنهم من المذاكرة فى زرع هذا المذهب وتطبيقه على الأحوال المصرية» [الأهرام ـ ١٨ / ٨ / ١٩٢١]. وعندما تعثرت المفاوضات بين مؤسسى الحزب كتب سلامة موسى إلى الأهرام: «وما لم يتم الاتفاق حول تأسيس الحزب فإننا سنؤلف جمعية غايتها الدرس أكثر من السياسة» [الأهرام ١٧ / ٨ / ١٩٢١].

ولكن الأربعة الذين اصدروا بيان التأسيس تركوا مسألة السكرتير العام مفتوحة، فأسرع الأهرام ليقول ان د. على العنانى هو السكرتير العام. فنفى على العنانى ذلك.. ونفى ذلك ايضا سلامة موسى فوجه إلى الأهرام رسالة يقول فيها: «ولما كنت واقفا على حقيقة الحال أعلن للقراء أن الدكتور العنانى ليس سكرتيرا» [الأهرام ١٧ / ٨ / ١٩٢١] وفيما يبدو أن سلامة موسى كان يرى انه الأكثر جدارة بهذا الموقع.. فأسرع لينشر «نداء إلى الأمة المصرية» يناشد الشعب المصرى وجمعيتى الهلال والصليب الأحمر جمع

تبرعـات للشعب الروسى الذى يعانى من المجـاعة» ووقع النداء «سلامه مـوسى - سكرتير الحزب الاشتراكى المصرى» لكن التوجهات الفابيه الصارخة كانت تحول بين سلامة موسى وموقع السكرتير العام لحزب يتأهب كى يصبح شيوعيا.

وما أن يقرر الحـزب انتمائه للتوجه الشـيوعى حتى ينسحب سلامـة موسى من الحزب، وكالعـادة نشر بيانا فى الأهرام تحت عنوان «عام فى الاشـتراكية» قـال فيه «منذ عام تقـريبا تألف بالقاهرة حـزب اشتراكى معـتدل المذهب يسير على خطة نـيرة رشيده يقـوده زعماء اكـثرهم تربى فى أوربـا وشاهد بعـينه الحـركة الشـيـوعيـة فى إقبـالهـا وإدبارها، وغلوها واعتدالها وكلهم مع ذلـك وطنى يعرف أن مصر لم تبلغ بعد الدرجة التى تسـتطيع فيها أن تهمل الرابطة الوطنية مستعيضة عنها بروابط أخرى شـعبية أو اجتماعية.. لهذا السبب اراد مبتدؤو الحـركة فى مصر أن تكون صبـغتها مصرية بحـتة تتكيف بتكيف المزاج المصرى ولا تنقل عن أوروبا نقلا. كما ارادوا ان ينهجوا نهج الاعـتدال والثقة فى خطتهم بحيث لايجد ولاه الأمور مجالا للتخوف أو الشدة فى سيـرهم» ثم.. «انى اعتقد ان الاشتراكية لن تفلح عندنا حتى يرضى بها المتوسطون - إن لم أقل الاغنياء - قبل العمال لأنهم الطبقة المستنيرة التى تستطيع فهم مبادئها» واخيرا «ان الثورة فـى بلاد مثل مصر مقضى عليها بالفشل، ولو نجحت لكان نجاحها شراً من الفشل» [الأهرام - ٤ / ٣ / ١٩٢٣].

وينسحب سلامة موسى من الحزب.. ومن ميدان السياسة، إنسحابا نهائياً لارجعة فيه.

ومع ذلك فقد ظل سلامة موسى ملاحقا.. كشيوعى. نقرأ فى المجلة الجديدة تعليقا على كتـاب صدر بغيـر توقيع يحـمل عليه حملة شـديدة فيقـول: «وسألت عن كـاتبه فى إدارة المطبـوعات فعـرفت إنه إبن اخ رشيـد رضا الصـحفى السـورى المعروف، الذى وفـد على بلادنا كما تفد الطواعين وخص نفسه بشتم الشبان المصريين واتهامهم بالالحاد والشيوعية» ويورد سلامة مـوسى بعضا من الشتائم التى حـشدها صاحب الكتاب ضد سـلامة موسى، ويقول: «وهكذا بحيث تحتاج إلى أن تغسل يديك عقب قراءة هذا الكتاب، وقد تناولنا هذا السورى السافل بتهمة الشيوعية والدعـاية لها.. فوضع نفسه بالوضع الذى يستحقه.. وهو وضع الجاسوس» [المجلة الجديدة - يوليو ١٩٣٠].

وفى عام ١٩٤٦ قبض على سلامة موسى ووجهت له تهمة ظل يتحاشاها طوال حياته.. فقد اتهم بالشيوعية.

• المثقف والأديب:

لعل الكثيرين لايعرفون ان سلامة موسى هو الذى اشتق من اللغة لفظ «ثقافة» و«مثقف» وقد اشتقه من الجذر اللغوى «ثقف» وفى المعجم «ثقف السهم أى جعله مدببا قادراً على اصابه الهدف» وهكذا تكون «ثقافة» هى تهيئة العقل ليكون قادراً على إصابة المعرفة والتوصل إليها».

وهو إشتقاق بالغ الذكاء.. وإلى سلامة موسى يرجع الفضل فى استخدامنا هذا الاشتقاق اللغوى.

والمثقف عند سلامة موسى موسوعى المعرفة فهو لايقف عند مساحة معينة من إصابة المعارف.. بل يحاول أن يتجول فى بحار المعرفة سعياً وراء النهوض بالعقل.. والتنوير.

أما الأدب عند سلامة موسى فهو «أدب هادف» فهو يهاجم أدباء عصره «لانهم خانوا الأمانة وجعلوا الادب لعبة سخيفة، ورياء كاذبا، ومكراً سيئاً فكانوا يمدحون السلطان عبد الحميد فى الوقت الذى كنا ننتظر منهم ان يعلنوا إستبداده، وكانت تنشر لهم دواوين لحمتها وسداها تمجيد عظماء المال والجاه» [مختارات سلامة موسى – مقال الادب فى نقد الحياة – ص١٠].

وفى مقال آخر يقول: «وأدباؤنا ليس لهم غاية، فإن الأنكباب على الصنعة قد إستغرق جهودهم ولم يترك لهم من الوقت سعة لدرس الفلسفة أو الاجتماع أو العلوم» [مختارات سلامة موسى – مقال القديم والجديد فى الادب – ص٤٥].

• الصحفى

.. ويعمل سلامة موسى بالصحافة. يكتب كثيرا.. بل وكثيرا جداً، يصدر مجلته الخاصة «المجلة الجديدة» ويفتح لنفسه مساحة واسعة من التعبير الهادئ والماكر فى أحيان

كثيرة.

وكان سلامة موسى هو صاحب الاكتشاف الماكر.. ان ينشر رسالة من قارئ مجهول تتضمن سؤالا ماكراً.. ويجيب عليها.

مثلا نشرت المجلة الجديدة تحت باب «اسئلة القراء» «الاسكندرية - مصر. ع.م. ما الفارق بين هذه الألفاظ: الاشتراكية - الفاشية - البولشفية - الشيوعية» ويجيب سلامة موسى: الاشتراكية هى التدرج بالطرق البرلمانية القانونية إلى جعل العقارات المغلة التى تحتاج لاستخدامها إلى استخدام عمال.. كالأرض والمصانع والمناجم ملكاً للأمة - أما الشيوعية والبولشفية فكلتاهما مسمى لشئ واحد، وهى تشابه الاشتراكية فى النتيجة ولكنها تختلف فى الوسيلة لأنها تعتمد على الثورة والانتفاض كما حدث فى روسيا» {المجلة الجديدة - العدد ١٠ - المجلد ١ - أغسطس ١٩٣٠ - ص١٢٨٧}.

وينشر سلامه موسى دراسة ممتعة عن «مكسيم جوركى» الذى اسماه «اديب الصعاليك» {المجلة الجديدة - يوليو ١٩٣٠}.

ونعود مرة أخرى إلى الأسلوب الماكر فتنقل مجلته عن مجلة أجنبية حديثا لها مع العلامة أينشتين يقول فيه:

س: أليست آسيا هى أم الاديان؟

جـ: يبدو أنها الكنز العظيم للأفكار، بل لقد عرفت أن الشيوعية نفسها قدجرت فى آسيا قبل آلاف السنين.

س: هل تظن أن العالم الغربى سيمر فى طور شيوعى؟

جـ: اذا حدث هذا فإننى لا أدهش.

س: وكيف تكون حياتك فى هذا النظام؟

جـ: تكون لابأس بها.

س: هل توافق لينين على ان الحرية الاقتصادية من أوهام الأغنياء والطبقات المتوسطة؟

جـ: ربما كان لينين صادقا. فالحرية الكاملة لاتتفق والحضارة. فإذا كنت لا أحب أن يدوسنى أحد، فإنى أضطر إلى الخضوع لانظمة تحد من حريتى، وكلما زاد رقى الأمة

زادت تضحيات الفرد وهذه التضحيات هى ثمن الحضارة» [المجلة الجديدة - ابريل ١٩٣٠ - ص٧٤٦].

وفى المجلة الجديدة نقرأ سؤالا حاداً كسكين «من يملك مصر؟» وتكون الأجابة أكثر حده «المصريون لايملكون مصر، وإنما يملكها من يمتلك الأرض الزراعية فيها. وهم ١٢٢, ٠٩٧, ٢ مالكا وسائر الأمة الذى يبلغ ١٣ مليونا لايملك شيئا من هذه الأرض. والأغرب من ذلك أن يملك نصف الثروة الزراعية فى مصر أقل من ٠٠٠, ٣ فرد» [المجلة الجديدة ـ سبتمبر ١٩٣٠].

وتنشر المجلة الجديدة مقالا عن الملكية الزراعية يقول «ان اكثر من ١٥٪ من كبار الملاك هم من الأجانب واكثرهم سلب املاكه بطريق الربا الفاحش» ويتحدث المقال عن نظام الملكية المشاعة الذى حققته روسيا فى كثير من أراضيها مؤكداً «ان الملكية المشاعة سبقت من الناحية التاريخية الملكية الشخصية، فالأرض فى العصور التاريخية الأولى كانت ملكاً مشاعاً لجميع الناس، يستثمرها من يشاء ثم يقول «ان الأمتلاك الفردى للأرض يؤدى إلى انتشار الجوع. والعلاج الوحيد هو جعل الأرض ملكاً مشاعاً. فالأمتلاك الفردى مناف للطبيعة. فكما أن لجميع الناس حقوقا متساوية فى الهواء والضوء، كذلك يجب أن يكون لهم حقوق متساوية فى الأرض» [المجلة الجديدة ـ ابريل ١٩٣٤ ـ ص٤٣].

ويهاجم سلامه موسى احتكار الشركات الغربية للتجارة مع مصر ويقول: «ومما زاد هذه الشركات طغيانا ثقتها بان الحكومة المصرية تقاطع روسيا، وتكره الاتجار معها، والحقيقة أنه لايوجد ما نخشاه من الاتجار معها كأن نستورد منها البترول بثمن منخفض مقابل تصدير القطن إليها مثلا» [المجلة الجديدة ـ ابريل ١٩٣٠ ـ ص١١١].

وهكذا نجد أنفسنا أمام صحفى ينفذ من ثقب الأبرة ملحاً فى نشر أفكاره.. وهى الدعوة للاشتراكية.. وتتقلب الأحوال.. يتغير الزمان.. وما يتغير سلامه موسى، يظل يكتب ويكتب كلما اتيحت له الكتابة حتى فى صحف اخبار اليوم.. ولكنه فى كل حين يكون قادراً على أن يفلت ما يريد، وان غلفه غلافا سميكا.

• فى العمل العام:

وواصل سلامه موسى وبشكل دائم تواجده فى العمل العام المصرى.

جعل من جمعيــة الشبان المسيحية مرتكزا لنشاطه.. وجمع حـوله هناك صفوفا لاينتهى من تلاميذ ومريدين ينهلون من فيض معارفه.

وأسس «المجمع المصرى للثقافة العلمية» وأسس «جمعية المصرى للمصرى» التى دعت لدعم الصناعة الوطنـية واستلهمت نمـوذج «غاندى» فى الاعتمـاد على الذات وعلى المنتج المحلى.. ويصيح سلامه مـوسى فى بيان نشره بالصحف «أيها الشبـاب المصريون كفوا عن معاملة الأجانب، لايشتر أحـد منكم شيئا الا من صـانع أو تاجر مصرى، لأنه بـهذا وحده يمكننا أن نحقق استـقلالنا» [تقويم المصرى للمصرى ـ لعـام ١٩٣٢].. وسلامه موسى هو صاحب فكرة إنشاء «شركة بيع المصنوعات المصـرية» فقد كان يغضب كل يوم مرتين وهو يمر فى «شارع فؤاد» سائراً على قـدميه ذاهباً أو عائداً من جمعية الشبـان المسيحية لأن هذا الشارع الذى يـمثل شريان الحـياة التـجارية لايوجـد فيه مـتجـر مصرى واحـد. وظل يلح ويكتب ويجرى إتصالات شـخصية حتى أقنع المسئولين فى بنك مصر بافتتـاح شركة بيع المصنوعات المصـرية.. وتشجيـعا لها تـبرع لها سلامـه موسى بألف جنيـه وهو مبلغ كبـير بمعايير هذا الزمان.

.. ويظل سلامه موسى ممسكا بقلمه، مستغلا كل ثقب ابره يمكن أن تنفذ من كلماته..

يظل يكتب ويكتب.. فـالكتـابة كانت حـياته وطمـوحه وامله وعـذابه ومحـرابه.. ظل يكتب حتى آخر نسمة من حياته.

ويرحل.. دون أن يتحقق حلمه الكبير..

لكن كـتاباته المبـدعة والموسـوعيـة تظل تراثا ثمينـا لفكرنا.. تراث يندر أن يتكرر أو ان يكون له مثيل.

عبد الرحمن الرافعي.. محاميا
جناية السياسي على المهني

حصل الفتى عبد الرحمن عبد اللطيف الرافعي على شهادة البكالوريا من مدرسة رأس التين بالإسكندرية في مايو ١٩٠٤ .. وكان ترتيبه الثالث.

كان عمر الفتى خمسة عشر عاما (ولد عام ١٨٨٩)، وهى سن صغيرة للحصول على البكالوريا بمعايير هذا العصر. كانت دراسة الحقوق تداعب خياله، شأن شباب هذا الزمان. أليست هى الدراسة التى تؤهل صاحبها للحصول على مكانة مرموقة.. وتؤهله كى يصبح وزيراً؟ (١).

لكن والده الأزهرى رفض، كى لايتخرج ابنه «قاضيا أهليا يحكم بغير الشرع» (٢) وأراد أبوه له أن يدخل الأزهر ليبدأ رحلة جديدة.. وبعد إلحاح عائلى قبل الأب على مضض.

وهكذا انتسب الفتى إلى مدرسة الحقوق الخديوية (كان مقرها ميدان عابدين حيث مبنى المحافظة الآن، وكان ناظرها مسيو جرانمولان، ووكيلها عمر بك لطفى).

وتجذبه أضواء الصحافة فيكتب مقالات يوقعها «حقوقى».. هذا التوقيع ذو الرنين الخاص فى آذان ذلك العصر (٣) وينال الفتى شهادة الليسانس فى يونيو ١٩٠٨ (٤).

---

(١) بعد عام ١٨٨٢ كان هناك ١٦ حقوقيا شغلوا موقع رئيس النظار أو رئيس الوزراء من بين ٢٧ وضمت وزارة بطرس غالى باشا أربعة وزراء حقوقيين من إجمالى الوزراء وعددهم ستة.
لمزيد من التفاصيل راجع: د. يونان لبيب رزق، تاريخ الوزارات المصرية - ١٨٧٨ - ١٩٥٣ مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام - القاهرة ١٩٧٥ - ص٣٥ .
(٢) عبد الرحمن الرافعى - مذكراتى ١٨٨٩ - ١٩٥١ دار الهلال ١٩٥٢ ص٩ .
(٣) كان أول مقال صحفى كتبه الرافعى بعنوان «تبدد الشعور الوطنى وتجمعه» اللواء ٩ مارس ١٩٠٨ .
(٤) كان أول دفعته عبد الحميد بدوى أما هو فكان ترتيبه الثانى والعشرين. وقد تخرج معه فى ذات الدفعة أحمد ماهر - حسن نشأت - محمد نجيب سالم - محمد نجيب الغرابلى - عبد الملك حمزة - كامل يوسف صالح - وقد لعبوا جميعا دوراً سياسياً مهما بما يؤكد صحة إفتراض الفتى عند إختياره دراسة القانون.

«وقيدت اسمي بجدول المحاماة فى ١٩ يوليو من تلك السنة، وكنت لم أبلغ العشرين بعد، واشتغلت محامياً باسيوط شهراً واحداً (تحت التمرين) بمكتب محمد بك على علوبه «باشا».. وكان وقت التحاقي بمكتبة على أهبة القيام بالإجازة، فتركنى لوكيل المكتب أتلقى عنه الإرشادات والتعليمات التى تلزم المحامى المبتدئ، فلم أرتح كثيراً لإرشاداته، ولا لطريقته فى تفهيمى القضايا، وبدا لى فى أول عهدى بالمحاماة أنها لاتعجبنى، وأنى لا آنس لها كثيرا.

فضلا عن أنى تساءلت فى خاصة نفسي: وما مصيرى فى المحاماة إلى جانب نظرائى فى الحياة وآمالى فى الجهاد؟ فقضيت الشهر قلقا، أتطلع إلى الأفق لعلى أهتدى إلى طريق آخر يتفق مع خواطرى، وآمالى» (٥).

وهكذا تنحى الرافعى قليلا عن طريق المحاماة، مؤملا أن يختصر طرييق الصعود السياسي عبر الصحافة.

وعمل محرراً باللواء على زمن محمد فريد {أكتوبر ١٩٠٨ حتى نهايات عام ١٩٠٩} حتى أقنعه صديقه أحمد وجدى الذى كان يعمل أيضا فى جريدة السياسة (التى أصدرها شقيقه محمد فريد وجدى).. بأنه: «يمكننا أن نشتغل بالمحاماة مستقلين، وأن نكتب فى الصحف ما نشاء من الآراء والمقالات، وأن ذلك أولى من الانقطاع للصحافة، مما قد يفقدنا ميزة الاستقلال فى حياتنا العملية.. ومازال يقنعنى حتى قبلت نصيحته بعد أن أمعنت النظر فيها ورأيتها فى جملتها أصوب من انقطاعى للصحافة وأدركت مع الزمن أنه أسدى لى أعظم نصيحة.. وعملنا معا فى المحاماة بمدينة الزقازيق منذ يناير ١٩١٠، وفتحنا فى تلك السنة مكتباً آخر لنا بالمنصورة كنت أتولى مباشرة قضاياه، ثم انتقلت بمفردى إلى المنصورة واستقر بى المقام فيها منذ أكتوبر ١٩١٣ حين أنشئت بها المحكمة الابتدائية، وظللت بها نحو عشرين سنة، إلى أن انتقلت نهائيا إلى القاهرة فى ديسمبر ١٩٣٢».. ويمضى الرافعى مؤكدا «وقد إرتحت كثيرا إلى التحول من الصحافة إلى المحاماة.. وأدركت أنها المهنة التى يجب أن أختارها لأؤدى واجبى الوطنى إلى جانب واجباتى

---

(٥) الرافعى – مذكراتى – المرجع السابق ص١٥

الشخصية»[٦].

على الجانب الآخر.. وفى ضفة السياسة المباشرة إنغمس عبد الرحمن الرافعى فى نشاطه كعضو فى الحزب الوطنى.. وكان إنتماؤه الحزبى صارما إلى درجة أنه أغلق مكتبه مؤقتاً فى سبتمبر ١٩١٠ حتى يرأس تحرير جريدة «العلم»، نظراً لغياب رئيس تحريرها المؤقت خارج البلاد، فيما كان رئيس تحريرها الأصلى الشيخ عبد العزيز جاويش سجينا فى قضية «وطنيتى» الشهيرة.

وفى ١٩١١ عقد الحزب الوطنى مؤتمره السنوى لينتخب محمد فريد رئيسا مدى الحياة، وينتخب عبد الرحمن الرافعى عضوا فى اللجنة الإدارية.

●●●

«فهمت الوطنية على أنها إخلاص للوطن، وسعى متواصل لتحقيق أهدافه، واستمساك بحقوقه، وتغليب لمصالحه العليا على مصالح الإنسان الشخصية، ومن الوجهة الاجتماعية جعلتنى هذه العقيدة أرى أن الوطنية تتطلب من المواطن أن يحيى حياة مثالية، لأن الحياة المثالية هى الأساس الوطيد للحياة الوطنية، فتاقت نفسى عندما تخرجت من مدرسة الحقوق وانتظمت فى سلك الحياة أن أنشد المثالية فى حياتى الشخصية والعائلية والاجتماعية، وأن أنشد المثالية فى الحياة السياسية.. ولست أدرى مبلغ ما حققت من المثالية.. وإلى أى مدى كنت مثاليا أو غير مثالى، وهل المثالية ممكنه أم لا، نافعة أم ضارة، وهل هى ـ بوجه خاص ـ ممكنة فى الحياة السياسية أم لا، وهل أخطأت أم أصبت فى نشدانى لها؟»[٧]

.. ترك الرافعى هذه الأسئلة بلا أجابة.

ولعل هذه العبارة تستثير فينا الرغبة فى تقديم إجابة ولو جزئية.. حول دوره كسياسى فى مجال نقابة المحامين.. وتقييم هذا الدور.

وسوف نعتمد هنا على إيراد سلسلة من المواقف النقابية/ السياسية.. لعلها عندما توضع إلى جوار بعضها البعض توضح لنا مدى مثالية الرافعى فى هذا المجال:

(٦) المرجع السابق ص١٧

(٧) محضر مجلس نقابة المحامين فى جلسة ٢ - ٤ - ١٩٢٢

• فى عام ١٩٢٢ وفيما كانت حكومة ثروت تشكل لجنة الثلاثين لوضع دستور جديد للبلاد.. اتخذ الوفد والحزب الوطنى موقفا يرفض أن يوضع الدستور على يد لجنة حكومية أسموها (لجنة الأشقياء).. ورفضت نقابة المحامين الأنضمام إلى لجنة الأشقياء بممثل عنها..

واجتمع مجلس النقابة وأصدر قرارا يقول: «أن وضع الدستور هو من حقوق الأمة.. وبما أنه يجب أن تمثل الأمة فى هذا الصدد جمعية وطنية تنتخب إنتخابا حرا بعيدا عن ظل الأحكام العرفية، وتأثير السلطة الإدارية..».

وقرر المجلس تشكيل لجنة لدراسة مشروع الدستور الذى تضعه لجنة الثلاثين ووضع تقرير يشمل المبادئ التى يجب أن تكون أساسا للدستور المصرى، وشكلت اللجنة من النقيب وأربعة محامين كان منهم عبد الرحمن الرافعى، وكان الوحيد من بينهم الذى لايحوز عضوية مجلس النقابة».

(يبدو أن هذه اللجنة لم تكمل عملها.. فأرشيف النقابة ومحاضر الجلسات التالية خلو من أية إشارة لمثل هذا التقرير).

لكن النقابة واصلت معركتها ضد لجنة الأشقياء، ويقبض على النقيب مرقص حنا [٢٥ يوليو] بتهمة توزيع منشور يعرض للكراهية والاحتقار حكومة ملك مصر.

ومرة أخرى تختار النقابة عبد الرحمن الرافعى ضمن وفد يسافر للإسكندرية لتقديم عريضة لجلالة الملك ملتمسين منه التدخل للإفراج عن المحامين المقبوض عليهم (٨)

• ولا يمضى زمن طويل.. فقط عامان أو أقل.. الوفد خارج الحكم، زيور باشا رمز الفجاجة السياسية والخضوع الذليل للإحتلال والقصر يحاول أن يقلم أظافر الوفد.

إن أقوى هذه الأظافر وأكثرها فعالية هى «نقابة المحامين».. ومن ثم قررت الحكومة سحب بساط نقابة المحامين من تحت أقدام الوفد.. وتحالف معها فى هذه اللعبة الأحرار الدستوريون.. والحزب الوطنى، وممثله فى هذه الموقعة عبد الرحمن الرافعى. وتجدر

(٨) تقرير مجلس النقابة عن أعماله، المقدم للجمعية العمومية للمحامين الأهليين المنعقدة فى ٢٩ - ١٢ - ١٩٢٢

الإشارة إلى أن القصر الملكي كان المحرك الأساسي لهذه المعركة ضد الوفد [٩]

وفي ١٢ - ١٢ - ١٩٢٤ عقدت الجمعية العمومية للمحامين، وكان الحضور قليلا. وربما استشعر مجلس النقابة الوفدي ضعف حضور المحامين الوفديين، وربما أحس بكتلة من المحامين توحدت ضده (القصر - زيور - الأحرار الدستوريين - الحزب الوطني).. أكد مجلس النقابة أن الجمعية لم تكتمل.. وأكد الآخرون انها مكتملة.

انسحب الوفديون.. وبقي ٧٨ محاميا فقط. قرروا استمرار الجمعية العمومية وسمحوا لأنفسهم بأن يرأسها إبراهيم الهلباوي (المدعي العام في قضية دنشواي).. واتخذت الجمعية قرار هادئا بل وضعيفا إزاء حادثة السير لي ستاك وتداعياتها. وانتخب أحمد لطفي (حزب وطني) نقيبا.

وتشير صحف هذه الفترة إلى نشاط نقابي عارم للرافعي على رأس محامي الحزب الوطني الذين اعتبروا أن انتخاب واحد منهم نقيبا للمحامين، يعد نصرا كبيرا حتى ولو كان عبر تحالف مع القصر.. وزيور.

ونشرت «الأخبار» (لسان حال الحزب الوطني آنذاك) برقيات تهنئة للنقيب «وبشفاء الأمة من الحمى الوفدية فبشرى لمصر بالنجاح» [١٠]

• لكن عام ١٩٢٥ يأتي ليشهد تحالفا بين الوفد والأحرار الدستوريين والحزب الوطني ضد حكومة زيور، وتعقد جمعية عمومية هادئة لنقابة المحامين (زيور لايمتلك الآن أظافر بعد تخلي الدستوريين وأعضاء الحزب الوطني عنه)، وتنتخب الجمعية بالاجماع مرقص حنا (وفد) نقيبا وحافظ رمضان (وطني) وكيلا [١١]

• ثم نسرع نحو عام ١٩٣٧ حكومة الوفد أطيح بها. والوفد ذاته يعاني من إنقسام خطير أثمر الحزب السعدي (محمود فهمي النقراشي، أحمد ماهر)، وهنا يقع التحالف المعتاد بين الحزب الوطني وأحزاب الأقلية وكذلك القصر ضد الوفد في نقابة المحامين.

(9) Reid, D.M. The National Bar Association and Egyptian Politics, 1912 - 1954 The International Journal of African Historical Studies, VII, 1974

(١٠) الأخبار ١٤ - ١٢ - ١٩٢٤

(١١) محضر اجتماع الجمعية العمومية لنقابة المحامين في ١٨ - ١٢ - ١٩٢٥

وفى هذه المرة أيضا يكون عبد الرحمن الرافعى هو رأس الرمح فى معركة النقابة.

ففى ٣١ ديسمبر ١٩٣٧ إنعقدت الجمعية العمومية لتشهد الأنقسام التقليدى، لكن الزمام هذه المرة يفلت من الأيدى الوفدية. الفريقان حشدا قواتهما فازدحم المكان بحضور ٧٩١ عضوا، وبلغ الزحام مبلغا أعجز رئيس الجلسة عن إداراتها، (أو هكذا أعلن) وقرر التأجيل للساعة الخامسة، خاصة بعد وقوع اشتباكات بين أنصار الطرفين.

وانسحب الوفديون ليبقى ٢٦٥ محاميا (بما يوضح أن الأغلبية بين الحاضرين كانت للوفد) شكلوا كالمعتاد لجنة لإدارة الاجتماع، وكالمعتاد اقتسمها الدستوريون وأعضاء الحزب الوطنى.. وكان عبد الرحمن الرافعى عضوا فيها.

• وتتجمع نذر الحرب العالمية الثانية، ويكون السعى للتقارب بين الجميع بهدف مواجهة إحتمالات تعرض مصر للهجوم.

ويسعى على ماهر لـلتهدئة ويقدم مشروعا لتعيين مجلس لنقابة المحامين يضم شخصيات من كل الأحزاب على أن يجدد ثلثه بالانتخاب فى نوفمبر ١٩٤٠ وثلثه فى نوفمبر ١٩٤١، لكن مجلس نقابة المحامين يوجه خطابا لعلى ماهر يحتج فيه على المشروع قائلا: «اتصل بعلم المجلس من الصحف وغيرها أن هناك مساع تبذل بشأن مجلس النقابة لتعيين أعضائه، الأمر الذى يتنافى مع قانون المحاماة الحالى.. ومشروع القانون الذى أقره مجلس النواب.. إذ أنهم يكونون طائفة حرة محترمة لايعقل أن تتدخل الحكومة أو سواها فى اختيار مجلس إدارتها، كما أنه لايستساغ أن يبنى اختيار المجلس على أساس اللون الحزبى، فان نقابة المحامين ليست هيئة سياسية.. لذلك يقدم مجلس النقابة هذا رجاء العلم، والتنبيه بترك المحامين يتصرفون فى إنتخابهم بحسب القانون حفاظاً لكرامتهم وحقوقهم» (١٣)

وبرغم هذا المنطق القانونى المتسق فان أحدا لم يصغ إلى صراخ مجلس النقابة، وسعى

(١٢) محضر الجمعية العمومية العادية للمحامين برئاسة غبريال بك سعد فى ٣١ - ١٢ - ١٩٣٧
ويلاحظ أن أرشيف النقابة يضم المحضر الآخر للجمعية العمومية الأخرى التى انعقدت فى الساعة الخامسة برئاسة كامل صدقى.

(١٣) محضر اجتماع مجلس نقابة المحامين فى ٣ - ٩ - ١٩٣٩

خصوم الأمس إلى إقتسام الغنيمة، الوفديون حصلوا على رئاسة النقابة (محمود بسيونى) والحزب الوطنى حصل على منصب الوكيل (عبد الرحمن الرافعى).

والغريب أن الرافعى الذى خاض أكثر من معركة سابقة ضد سيطرة السياسة على النقابة (حزب الوفد) ومطالبا بانتخابات للنقابة معتمدة على الاختيار الحر للمحامين (وليس بتأثير الانتماء الحزبى) قد قبل راضيا هذا الترتيب الجديد. بل وامتدحه واعتبره قد تم «باتفاق جمهرة المحامين على إختلاف أحزابهم» (١٤)

لكن الوفد لم ينس أبدا للرافعى مناوأته له، واصطفافه مع خصومه.. وحانت ساعة الانتقام الوفدى، ففى التجديد الثلثى لعام ١٩٤٠، اجتمعت الجمعية العمومية لانتخاب ثلث أعضاء المجلس، وتجديد انتخاب الرئيس والوكيل. ويقول الرافعى فى مذاكراته: إن الوفديين أوهموه بأنهم سوف يجددون وكالته للمجلس: «وجلست مطمئنا طيلة الاجتماع، وكان المحامون الوفديون يهنئوننى مقدما بإعادة انتخابى وكيلا» لكن عملية الفرز كشفت أن الوفديين انتخبوا صبرى أبو علم وسقط الرافعى.

ويقول الرافعى ناسيا أو متناسيا ما فعل هو فى السابق: «لكن الأمر الذى حز فى نفسى أن يساير المحامون وهم الصفوة المختارة من الطبقة المتعلمة هذه السياسة الملتوية، ويعاملوننى هذه المعاملة الخالية من روح الاستقامة والتقدير والإنصاف، فهل تطغى الحزبية على هذه المعانى السامية.. إلى هذا الحد؟» (١٥)

● وتأتى ثورة يوليو وتحين ساعة الانتقام من الوفد.

فعندما عزل فاروق، وتقرر تشكيل مجلس للوصاية على العرش وظهرت الحاجة إلى ضرورة دعوة البرلمان الوفدى طبقا للدستور.. أفتى مجلس الدولة برئاسة السنهورى باشا بأن الحالات التى حددها الدستور لدعوة البرلمان المنحل هى وفاة المالك أو خلعه، وأننا إزاء حال للتنازل عن العرش، ومن ثم لاحاجة لدعوة البرلمان الوفدى، ويجوز أن يحل محله مجلس الوزراء فى إقرار هذا الأمر. وصدر القانون ١٢١ لسنة ١٩٥٢ بتعديل نظام توارث العرش طبقا لهذه الفتوى. وإنقسم رأى المحامين إزاء هذه الفتوى طبقا لانتماءاتهم

(١٤) الرافعى – مذكراتى – المرجع السابق ص١١٠

(١٥) المرجع السابق.

السياسية.. وحيدر رأفت (وفد) وصفها بأنها علامة بارزة على طريق الخروج عن الشرعية الدستورية [١٦]، بينما ناصرها قولا وكتابة محامون آخرون منهم فتحى رضوان وعبد الرحمن الرافعى [الحزب الوطنى] وكانا حليفين لثورة يوليو واختير أولهما وزيرا [١٧].

ويواصل الرافعى انتقامه فيشكل مع مجموعة من المحامين الموالين لثورة يوليو جماعة أسميت «المحامين الأحرار» ضمت محامين من الحزب الوطنى ومن الإخوان المسلمين وآخرين.. ويكون هدف هذه الجماعة إقصاء الوفد عن نقابة المحامين.. وإذ تنعقد الجمعية العمومية لنقابة المحامين فى أكتوبر ١٩٥٢ يقدم المحامون الأحرار طلبا بسحب الثقة من المجلس.. وإذ ترفض الجمعية العمومية الطلب بأغلبية كبيرة (الحاضرون ٤١٤ وأنصار المحامين الأحرار ٥٠ فقط). ويعلن رئيسها إنهاء أعمال الجمعية العمومية يصمم خمسون محاميا على البقاء فى حماية الشرطة ويواصلون الاجتماع ويقررون «سحب الثقة من مجلس النقابة وتكوين مجلس مؤقت للإشراف على إجراء انتخابات جديدة تتمشى مع روح العهد الجديد» [١٨] وأسرع المجلس الجديد (المؤقت) للاجتماع.. أين فى مكتب محمد طاهر الخشاب (أحد القادة الاخوانيين) وأجروا اتصالات بسليمان حافظ وزير الداخلية [١٩].. لكن ثقل ثورة يوليو لم يسعفهم فى مسعاهم غير القانونى، وفشلت خطة المحامين الأحرار.

• ويحتاج الأمر بعضا من الوقت.. مارس ١٩٥٤ يأتى ويكون الانقسام فى صفوف يوليو قادرا على تشجيع الكثيرين على التمرد.. ومن هؤلاء نقابة المحامين، فعقب إعلان قرارات ٢٥ مارس التى أصدرها مجلس قيادة الثورة، يعقد مجلس نقابة المحامين اجتماعا ليوافق على عقد جمعية عمومية، وكانت جمعية ساخنة حيث ارتفعت أصوات (وفدية فى أغلبها) مطالبة بمحاكمة أعضاء مجلس قيادة الثورة، وعودة الجيش إلى ثكناته، وتشكيل

(١٦) وحيد رأفت ـ فصول من ثورة ٢٣ يوليو – دار الشروق – ١٩٧٨ – ص١٢٣
(١٧) د. عبد العظيم رمضان – الصراع الاجتماعى السياسى فى مصر، يوليو ١٩٥٢ – مارس ١٩٥٤، ط٢ – مكتبة مدبولى ص١٣٢
(١٨) أخبار اليوم ٤ – ١٠ – ١٩٥٢
(١٩) المرجع السابق.

حكومة مدنية محايدة تجرى انتخابات حرة [٢٠]

وتوجه حكومة يوليو ضربتها ويكون القفاز.. هو عبد الرحمن الرافعي. فيصدر القانون رقم ٧٠٩ لسنة ١٩٥٤ بحل مجلس النقابة وتشكيل مجلس مؤقت «تسند له كل اختصاصات وسلطات مجلس النقابة على أن يقوم هذا المجلس بأقتراح ما عساه أن يعين على تنظيم المهنة، ويحقق للسادة المحامين إجابة السائغ العادل من طلباتهم» [٢١] ويكون رئيس المجلس المؤقت المعين.. عبد الرحمن الرافعي.

•••

وبعد..

لسنا نريد هنا أن نلوم الرافعي. فقط نلوم السياسى الذى كان دوما ضمن حزب صغير جدا، محدود القوة لايستطيع أن يلبى طموحات قادته، فيدفعون ثمن تحقيق طموحات لم يكونوا مؤهلين لها بسببُ إنتمائهم الحزبى، ويكون الثمن باهظا.

إنها ذات المسيرة التى خاضها كل البرجوازيين الصغار من السياسيين مستندين إلى كفاءات شخصية، ومناورات مجدبة، وغير مجدية لسبب بسيط هو أنهم نابعون من فئة اجتماعية ضعيفة اقتصاديا، ومن ثم اجتماعيا وسياسيا.. وتدور بهم المناورات رغم كل نواياهم الحسنة - لتوقعهم فى الخطأ، وأحيانا فى الخطيئة.

•••

مرة أخرى، وليست أخيرة، أنه ثقب الأبرة الضيق، والذى قد ينفرج أحيانا أو يضيق فى أحيان أخرى لكنه يبقى دوما ومهما إتسع مجرد ثقب إبره.

ويصبح المثقف / السياسى / الليبرالى منصاعاً له حتى ولو كان فى قامة عبد الرحمن الرافعى، فأما أن يبذل محاولات الإنفلات عبر ثقب الأبرة متخليا عن الكثير من القيم والمبادئ والحق والعدل.. واما أن يتباعد بعيداً عن الضوء.

(٢٠) محضر اجتماع الجمعية العمومية لنقابة المحامين المنعقدة فى ٢٦ مارس ١٩٥٤
(٢١) المذكر الإيضاحية للقانون لسنة ١٩٥٤

ويمكن القول أن طريقا ثالـثا كان موجودا ومفـترضا.. وهو الرفض للإبرة وثقبهـا معاً، وتحدى هذا الوضع برمته.. والتأكيد على الحق فى ليبرالية متكاملة، أو شبه متكاملة.

هذا الطريق كـان موجوداً دائمـا.. وخاض البعض غـمارة، سـاروا فوق شوكـة بأقدام قادتهم دوما نحو.. السجن. ومـا كان للكثيرين وخاصة من مثقفى البـرجوازية الصغيرة ان يحتملوا هذا الشوك ولا ما يفضى طريقه إليه.

وما كان للرافعى مثلا.. [كنموذج نموذجى] ان يحتمله.

فكان ما كان.

محمود أمين العالم
المفكر فى غابة السياسة

لست أعرف تحديدا ذلك السبب الذى يدفع الفلاسفة - ربما كل الفلاسفة - إلى التباعد عن الأنغماس فى غابات الفعل السياسى. ربما لأنهم يهتمون بما هو عام جدا ويرفضون التلامس مع ما هو تفصيلى.. وربما لأن أدوات التغيير عندهم هى إعمال وتحريك أدوات التفكير عند الصفوة، بينما السياسيون يلجأون إلى العامة. وربما لأن ما هو حق فى الحقيقة هو حق دائما عندهم، وفى السياسة يختلف الأمر فقد يتلاعب السياسيون مستمتعين بهذا التلاعب بالحق والحقيقة معا.

وقد عرفت مصر عديداً من الفلاسفة المرموقين.. وعرفت سياسيين أكثر من أن يخضعوا للاحصاء، لكن أحداً غير محمود العالم لم يفعلها، فظل مغرقا فى فك طلاسم الفلسفة، مستمتعا بمحاولة المزاوجة بينها وبين ما هو سياسى ويومى وجماهيرى.

ومحمود العالم قطعة من النسيج المصرى الذى تشابكت خيوطه وتشبعت بالعطر المصرى العتيق. (والعطر كالنبيذ يزداد حلاوة كلما إزداد قدما).. فأقدامه الصغيرة منذ تعرف على قدرة المشى داست كل أزقة الكحكيين والباطنية والقربية وحيضان الموصلى ودرب المحروق.. مروراً بكل الأسماء الأخرى التى تمجدت بأنتمائها الشبق بكل ما هو أصيل فى المصرية، والترانيم التى إلتقطتها الأذن وهى بعد طفلة هى تراتيل الأذان من مآذن الحسين والأزهر والمؤيد.. وتواشيح المرتلين فى وجد فى الأمسيات المباركة بمناسبات دينية.

إنها المصرية الخالصة التى تفسح للتدين المساحة الأكبر فيفسح بدوره كل المساحات للعقل والتأمل المتعقل.

والتعليم كعادة أهل هذه الحارات يبدأ حتما فى الكتاب. وتحت لسعات عصى عم الشيخ السعدنى شيخ الكتاب القابع فى مدخل حارة السكرية حفظ كثيرا من القرآن. ثم إلى المدرسة الرضوانية الأولية بالقربية، ومنها إلى النحاسين الابتدائية بالقرب من بيت القاضى (ويكفى أن نتأمل الأسماء والأماكن لنعرف أى فتى كان، وفى أى مناخ نشأ).

لكن التعليم ترف لايستحقه إلا أبناء الأغنياء. وهكذا أطاح بـه الفقر الفقير بعيدا عن المدرسة. فالأب عجز عن سداد المصروفات. وأخذته أمه إلى زوج أختها الحاج منير الدمشقى صاحب المطبعة والمكتبة المنيرية ليتعلم حرفة الطباعة. "وفى بضعة أسابيع إستطعت أن أتعلم جزءاً كبيراً من صندوق الحروف، وتركيب الجمل والعبارات، وربطها بالخيط مع الجمل الأخرى، وأبنى صفحة كاملة من الرصاص، على أنى فى أغلب الوقت كنت أعمل مساعداً للعدد البسيط من العمال الذين كانوا يعملون فى المطبعة.. كاحضار الشاى وشراء السجاير" (١)

ولكن، ثمة شئ غريب يلعب دوراً فى تكوين هذا الكون وأناسه، هو «المصادفة».

.. «لم تطل غيبتى عن المدرسة، إذ سرعان ماجاء خطاب رسمى منها يدعونى إلى العودة معفى من أداء المصروفات، وكان السر وراء ذلك أن الملك فؤاد كان مريضا آنذاك وشفى. فتقرر منح المجانية للمتفوقين فى سنوات الدراسة الابتدائية» (٢)

أنها المصادفة التى منحت مصر والفكر العربى المفكر والمناضل محمود العالم بدلا من الأسطى محمود المطبعجي.

ولعل هذه المصادفة التى صادفته فتحولت بحياته كلها نحو الأرحب والأجمل هى التى دفعته فيما بعد كى يتفرغ للبحث حول «فلسفة المصادفة».

وما أن أمسك الفتى بخيط التعلم حتى تشبث به.. تفوق، حصل على جائزة وزارة المعارف. حصل له أخوه شوقى على مجانية فى المدرسة الثانوية. وعندما تأرجح به الزمان يحاول أن يحرمه مواصلة دراسته الجامعية باعت أخته عائشة قطعا من الحلى هى كل ما تمتلك كى يتواصل مع الحلم. ثم توظف وواصل دراسته متحديا كل ما غرسه الفقر من معوقات.

•••

.. «كان أبى من رجال الدين. وكان من أتباع الشيخ محمود خطاب مؤسس الجمعية الشرعية.. والأخ الشيخ أحمد أزهرى كفيف، كان ينقل كل كتبه الدراسية إلى طريقة

(١) محمود أمين العالم - مقال - التكوين مجلة الهلال - مارس ١٩٩٣
(٢) المرجع السابق.

«بريل» وكان على الفتى محمود أن يمليه «ولقد ظلت أملى عليه وأقرأ له منذ أن إستطعت القراءة حتى سن المراهقة، خائضا فى مختلف كتب التفسير، والحديث، وأصول الدين، وعلم الكلام واللغة إلى غير ذلك، أفهم بعض المعانى ويغيب عنى بعضها، ولكنى أعيش عطر ثقافة عريقة لايزال رحيقها الغامض يغمر نفسى» (٣).

الأخ الآخر شوقى كان أزهريا متمرداً، فصل من الأزهر بعد أن ألف كتابا هاجم فيه الأزهر والأزهريين أسماه «الأزهر فوق المشرحة». وكان شوقى صديقا لكامل كيلانى رائد أدب الأطفال. وإتخذ الكيلانى من محمود معياراً يقيس به مدى تفهم الأطفال والناشئة لما يكتب من قصص. فظل يقرأ له ومعه ويحضر مجالسه مع كبار الأدباء.. يستمع ويتعلم.

ويستجمع الفتى ذلك كله ليضيف إليه: الشعر، الشطرنج، الموسيقى (أسس وهو طالب بالجامعة جمعية الجرامفون مع د. لويس عوض. هناك إلتقى مع طالبة فى قسم إنجليزى هى سميرة الكيلانى. وفى عام ١٩٥٢ تزوجا).

وفى الجامعة.. وفى بداية دراسته للفلسفة إصطدم بقطار د. عبد الرحمن بدوى، ثم بتهويمات د. لويس عوض فى اشتراكية غامضة، وتراوح لزمن بينهما: "فى المرحلة الجامعية كنت أتراوح فكرياً بين نيتشوية ووجودية عبد الرحمن بدوى، وإشتراكية لويس عوض، لكن الفتى لم يكن منقاداً مغمض العينين، بل كان متمرداً معملاً عقله «والغريب أننى كنت أرى فى وجودية عبد الرحمن بدوى.. وخاصة بعد أن طبع رسالته عن الزمان الوجودى - أنها وجودية مغدورة، ذلك لأنه صبها فى قوالب ومقولات تجمد فى رأيى آنذاك طبيعتها الوجودية.. وكان موقفى مشابها من اشتراكية لويس عوض. كنت أراها اشتراكية ملتبسة غير علمية" (٤)

وينقذه لبعض الوقت أستاذه د. يوسف مراد بمنهجه التكاملى. فينغمس فى جمعية "علم النفس التكاملى" تلك الجمعية التى جعلت من نفسها "جسرا بين مثاليتى وماركسيتى" (٥).

(٣) المرجع السابق
(٤) محمود أمين العالم - مقال - الهلال - مايو ١٩٩٣
(٥) محمود العالم - حوار - أدب ونقد - أكتوبر ١٩٩٢

وفى الجامعة عاش الحياة الفكرية بطولها وعرضها.. ناقش، اختلف، شاكس.. حتى طه حسين لم ينج من مشاكساته فى مقالات حادة ومتفجرة كتبها هو وعبد العظيم أنيس (طبعت فيما بعد فى كتاب: فى الثقافة المصرية).. حصل على جائزة الشيخ مصطفى عبد الرازق فى الفلسفة. نال درجة الماجستير حول "فلسفة المصادفة"، عين مدرساً مساعداً لمادة المنطق. بدأ يعد لرسالة الدكتوراه عن " الضرورة" بأعتبارها الوجه الآخر للمصادفة.

لكنه كان قد أصبح برصيده الفكرى، ومشاغباته الحوارية، ونشاطه المتفجر الذى مزج فيه بين الفلسفة والحرية والموقف الوطنى والديمقراطى.. واحداً من نجوم الجامعة.

وما كان مسموحاً لنجوم كهذه أن تبقى فى رحاب الجامعة.

.. «وفى عصر يوم من أيام صيف ١٩٥٤ إستدعيت لمقابلة د. يحيى الخشاب عميد الكلية. وجدت معه د. لويس عوض أبلغنا بحزن عميق وتأثر صادق قرار فصلنا من الجامعة. وأتذكر الآن الطريق الذى أخذنا نقطعة بتمهل، لويس عوض وأنا من كلية الآداب حتى ميدان الجيزة، ما تكلمنا كثيراً، لاشك أن حزنا ذاتياً كان يملأ قلبينا. كنت أحس شخصياً بأن حلمى بالمشروع الفلسفى أخذ يتلاشى، وأشعر بتهديد غامض لمستقبل إبنتى الوليدة، ولكنى أتذكر أننا ونحن نفترق قلنا معاً شيئاً واحداً، واتفقنا عليه بوضوح وحسم: سوف نغيب عن ساحة الجامعة. ولكن لاينبغى أن نغيب أبداً عن هذه الساحة التى نمضى نحوها، ساحة شعبنا، بلادنا، ساحة مصر كلها، سنواصل فيها الرسالة التى يؤمن بها كل منا» (٦).

●●●

أنا لا أدرى.. ماذا أفعل
لا أدرى عما أبحث
بل أتحدث، أتحدث
أتسول تأويلا
أنسج بالشعر بديلا (٧)

ويظل الشعر دوما ملجأة الأخير من الحيرة أو عدم الرغبة فى البوح الصريح.

---

(٦) الهلال - مايو ١٩٩٣ - المرجع السابق

(٧) محمود أمين العالم - أغنية الانسان - ديوان شعر - كتاب الجمهورية - ابريل ١٩٧٠

لكنه لم يكن أبداً عصيا إزاء الحقيقة. تغلفه الحيرة، تلك الحيرة المشروعة دوما فى عالم الفكر. ثم يستقر، فيندفع حتى ولو كان قد إستقر باتجاه النقيض.

هكذا كانت مصادفته الغريبة مع موضوعة الأثير "المصادفة".

«لم تكن المصادفة موضوعاً لبحثى منذ البداية بل كانت الموضوع شيئاً غامضاً يقف أمام قواى العارفة كأنه حائط كثيف معتم أستشعر جلاله وإن لم أتبين له فى نفسى دلالة محددة».. «والحق أننى لم أكن "كانطيا" بل كنت "دون كيشوتيا" متطرفا، وإن لم أملك درعاً من رياضة، أو معرفة علمية. على أنى إنطلقت عبر الظلمة وطواحينها العلمية الدائرة بضمير لا أدعى أنه كان يستهدف المعرفة وحدها، فقد كنت مأزوماً، أزمة تختلط فيها المفهومات الفكرية والقيم الاجتماعية والخلقية.. وكنت أعتقد أن إنطلاقى عبر الحائط الكثيف المعتم هى سبيلى للخلاص.. ولكنى كنت منتسباً إنتساباً كاملا إلى تيارات فكرية غير علمية، وكان هذا الانتساب الفكرى عقبة منهجية تردنى عن الاستبصار السليم بالبحث الذى استهدفه. كنت أتحرك بإرادة نيتشه وأتعرف بحدس برجسون وطفرته الحية، ولا أبصر فى الواقع غير لامعقول مايرسون وهكذا جعلت من البحث، ومن "الدلالة" رحلة إستبطانية، وجعلت من العقل إطاراً محدوداً قاصراً، ومن الحياة حبلا منصوبا فوق هاوية.. «وأحسست فى سذاجة وغرور لاحد لهما أن هذه مهمتى التاريخية. ومن ثم رحت أعد نفسى للرحلة الطويلة» (٨).

لكن مصادفات ماتقطع "المصادفة" وبحثه عنها وفيها. إكتشافه المنبهر للفكر الماركسى الأمر الذى دفعه دفعا إلى الأنغماس فى غابة السياسة، ثم طرده المتعسف من الجامعة الأمر الذى أبعده ولو قليلا عن كهنوت التفرغ لعلم الفلسفة.

وكان الأمر بسيطا للغاية.

.. «لقد بدأت هذا البحث (فى فلسفة المصادفة) غارقاً حتى أذنى فى الفكر المثالى، هادفاً لاتخاذ "المصادفة" معولا لتقويض الموضوعية العلمية، وهذا ما إعترفت به فى بداية

---

(٨) محمود أمين العالم - فلسفة المصادفة - دار المعارف (د.ت) يلاحظ أن التمهيد الذى يسبق المتن مؤرخ ١٩٦٩

البحث، أما ما لم أعترف به فهو أنى خلال البحث، بل فى مرحلة متقدمة منه إلتقيت بكتاب "المادية والنقد التجريبى" لمؤلفه لينين، الذى قادنى بدوره إلى كتاب "جدل الطبيعة" لانجلز، وكان هذا حدثا فكريا فى حياتى، قلب تصوراتى الفلسفية رأساً على عقب، فأمسكت بالمعول نفسه، ورحت أقوض به الفكر المثالى الذى كان يستغرقنى تماماً، وإقتضانى هذا سنوات أخرى أنسج فيها البحث منذ البداية على نول موضوعى جديد. بل رحت أجدد كذلك حياتى الفكرية. وأبدأ مرحلة جديدة من الحياة" (٩).

وأصبح محمود العالم ماركسياً.. من باب بحثه فى "المصادفة".

انتقل من النقيض إلى.. النقيض عبر اعمال العقل ومواصلة البحث.

على أنه لم يتخلص أبداً من عشقه لموضوع "المصادفة".

بل قدمها ومن جديد.. وبفهم جديد، يليق بماركسيته.

"المصادفة واقعة موضوعية، تتميز بأنها قابلة للتغاير والتمايز والتشابك، وأنها محصلة لعوامل متداخلة متفاعلة. وموضوعيتها لاتتنافى مع الضرورة الموضوعية. فالضرورة الموضوعية ليست تحديداً ميكانيكياً، أو قابلية للرياضة الاقليدية، وإنما هى بدورها ما يتميز به الواقع المادى من عليه عوامليه مجالية" (١٠)

بل أنه يتشبث بقيمة المصادفة حتى عندما يخوض مؤخراً - وبعد أن أصبح ماركسيا عريقا - عوالم النقد الأدبى لروايات نجيب محفوظ. «لأول مرة فيما أعتقد يعترف نجيب محفوظ بالمصادفة إعترافاً جهريا باعتبارها عاملاً أساسياً فى بناء مصائر أبطاله، وذلك على لسان كمال عندما يقول فى "قصر الشوق": "المصادفة هى وحدها التى عرفتك بحقيقة ذلك الرجل. والمصادفة هى التى لعبت فى حياتك أخطر الأدوار" :ومن الواضح أن المصادفة التى يقصدها نجيب محفوظ هنا على لسان كمال هى الوقائع الموضوعية التى لايدخل الفرد فى تدبيرها وتخطيطها ولكنها تدخل فى تشكيل حياته وعلاقاته بالاخرين و.."المصادفة بهذا المعنى لاتعد خلخلة فى البناء الفنى لرواياته، وإنما هى عنصر من عناصر

(٩) المرجع السابق.

(١٠) المرجع السابق - ص٣١٨

البناء نفسه سواء من الناحية المعمارية الشكلية أو من الناحية الفكرية" (١١)

هكذا نكتشف عالم محمود العالم.

فهو إذ يعمل العقل والفكر ويقرر الانتقال من موقف لآخر، يتنقل محملا بالقديم محاولا إلباسه ثياباً جديدة تتلاءم مع الموقف الجديد. هكذا فعل بفلسفة المصادفة. وهكذا فعل بالتراث إذ تعلق بالجديد.. وهكذا فعل عندما إلتقى بماركسيته الحازمة مع الفكر الناصرى فى إطار التنظيم الطليعى. أو حتى قبل ذلك.

ولعله يفصح عن ذلك صريحاً: «لتكن حياتنا إحتفالا دائما بالجديد ونبضا متصلا بالجديد، ولن يعنى هذا أبداً إنفصالا عن تراث، أو إنقطاعا عن تاريخ، ذلك لأن الجديد هو بحق روح كل تراث، وروح كل تاريخ، بل الجديد هو روح الحياة نفسها، وسر شجرتها الدائمة الاخضرار والنضارة» (١٢)

وهو إذ يقترب من "السياسة" يأتى مغلفاً بالتفلسف، بل ومتخذا لنفسه مبررات فلسفية ربما ليبرر لها ما فعل بها..

«قديما قال الفيلسوف الرومانى: الفضيلة هى فن إسعاد الذات بالعمل على إسعاد الغير. وحديثا تقول الحكمة النابعة من حياة الثوار جميعا: إنك لن تستطيع أن تغير ذاتك، وأن تجددها إلا بالعمل على تغيير الحياة وتجديدها فى مجتمعك وفى عصرك" (١٣) وأيضا.. "الغربة الحقيقية عن النفس هى الالتصاق بالنفس عن الناس. والوجود الحقيقى للنفس هو الرحلة إلى الناس بهم ولهم".. ثم"لم يعد العصر الذهبى للإنسان ماضيا قديماً بل أصبح حلماً نسعى به إلى التحقق، أصبح رسالة.. ومعركة معا" (١٤).

ومضى الفيلسوف فى طريقه.. داس على الشوك الشائك.. ارتدى ثياب المناضل، قاتل من أجل العصر الذهبى للإنسان.. الحلم الذى أصبح رسالة ومعركة معاً.

---

(١١) محمود أمين العالم – تأملات فى عالم نجيب محفوظ – الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر – (١٩٧٠) ص٦٦

(١٢) محمود أمين العالم – الرحلة إلى الآخرين – كتاب روز اليوسف (١٩٧٤) ص١٩

(١٣) المرجع السابق ص٧

(١٤) المرجع السابق ص١٣

ولكن كيف يمكن لهذا المتمرد.. الفيلسوف.. الذى آلى على نفسه أن يخضع كل شئ للعقل، المثقف المتعدد المجالات، الناقد الأدبى الذى إعتاد على النقد والانتقاد، أن ينقاد إلى مواقف وآراء وقرارات صادرة من تنظيم ماركسى صغيـر - صغير حتى بالنسبة للمنظمات الأخرى التى كانت هى أيضا صغيرة - اسمه "نواة الحزب الشيوعى المصرى"؟

لقد حاول وببساطة - وكما إعتـاد دائما - أن يغلف جديدة بقديمة، أو قديمة بجديدة، وأن يصوغ القديم والجديد معا فى جدلية متفاعلة دوما.

فالدعـوة التى يدعو إليـها "ليسـت ببساطة إلا دعـوة إلى تنميـة الثقافـة الثورية العـربية بإعتبارها إمتـداداً وتطويراً لأشرف ما فى تراثنا القومى العريق، وإلى التعجـيل بثورة ثقافية جذرية، تعمق قدرة التحرير والاشتراكيـة والوحدة القومية، وتعيد بناء الانسان العربى بناء حضارياً جديداً غير منقطع عن أشرف ما فى تراثه القديم، غيـر معزول عن حقائق مجتمعة المصرى."

ولعله كان يحاول أن يقنع نفسه إذ يخضعـها بكل طموحاتها للالتزام الحزبى والفكرى والمذهبى: إذ يواصل قائلا: "إن القـول بالدلالة الموضوعية والاجتـماعية للأدب أو للثـقافة عامة لاينفى ذاتيتـه، ولايحد من إبداعه، ولايخنق جمالياته، وإن الـقول بالالتزام ليس أمراً بالإلزام، أو حـجراً على الحـرية، وإنما هو إستـبصـار - بانسانيـة الثقـافة ووعى بأصـالتـها الثورية".

بل هو يصد نفسه صداً عن أية مخاولة للتمرد ويحذرها وبقسوة قائلا: "على أنى أدرك أن الصراع حـول هذه المفاهيم لن يتوقف أبداً، ذلك أنه يعـبر عن صراع أعـمق هو الصراع الطبقى الذى تدور أخطر مـعاركه فى مجـال الفكر، فى مجال الأدب، فى مـجال الفن، فى مجال الثقافة العامة" (١٥).

أرأيتم كيف حاول أن يروض نفـسه، بل وكيف روضها فعلا.. فـالصراع طبقى.. ومن يقف ضد فكرة الطبقة العـاملة، يكون (...) بل لعله كان يبرر لنفسه أو يعزيهـا أو هما معاً إذ يقول: "أين مأساة الفنان إذن فى المجتمع الرأسمالى؟ فى الفردية وفى الحرية نفسها. حقا

(١٥) محمود أمين العالم - الثقافة والثورة - دار الآداب، بيروت - ١٩٧٠ ص٧

أن المجتمع الرأسمالى يدعو إلى الحرية، ولكنه فى الوقت نفسه يمارس حريته فى تجارة الرقيق واستغلال العمال. حقا أنه يطلق العنان للفردية، لكنه يمزق الشخصية الإنسانية ويحطم الفردية، بما يفرضه من أنظمة تقوم على التخصيص الضيق، وبما يسود علاقاته من تنافس حاد ولارحمة فيه، ولا مراعاة لانسانية الانسان.. ولم ينج الفنان من هذا المصير نفسه بل أصبح الفنان منتجاً لسلعته، وأصبح بدوره يخضع لقوانين المنافسة الرأسمالية، وراح يعانى الأحساس بالغربة" (١٦)

وفى إطار هذا التنظيم الضيق الحدود ومن خلاله بدأ يتطلع إلى الماركسيين الآخرين متحدثاً مع نفسه ومع غيره عن ضرورة التوحد معهم. ولعله كرر لنفسه ولرفاقه وأكثر من مرة المثل العربى القائل: يتصارع الإخوان وهما مثل ركبتى بعير تقفان معا وتقعان معا".

وربما وجد نفسه هنا أيضا تبريراً ذا طابع فلسفى برغم أنه المصلحة السياسية كانت واضحة ولاتحتاج إلى تبرير.. ويقول: "نحن لن نعرف حقيقة الأشياء بطول إلتصاقنا بها. ولن نعرف حقيقة انفسنا بطول إغراقنا فيها وإستغلاقنا عليها، وسبيلنا الوحيد للرحلة داخل الأشياء وداخل أنفسنا هى الرحلة إلى الخارج.. خارج الأشياء، وخارج أنفسنا، بالنظرة الشاملة والتأمل المقارن، والخبرة المتحركة ثم.." ينفتح وجودك على الآخرين وللآخرين، ينفتح وجودك على الناس وللناس.. هذه الرحلة هى سبيلك لا لمعرفة الآخرين فحسب، بل هى سبيلك الوحيد لمعرفة نفسك" (١٧).

وفى ١٩٥٤ كان أغلب الشيوعيين – قيادة وقواعد – فى السجون والمعتقلات. وكانوا يعانون من وطأة إنقسامات وتشرذم، ويشتاقون إلى مايوحدهم، ومن يوحدهم، وأقاموا فى سجن مصر ثم فى سجن القناطر (بعد أنتقالهم إليه) لجنة للوحدة. ناقشت. حاورت. إتفقت. إختلفت. ثم توصلت إلى تفاهم عام، لكن ما قيمة أن يتفق السجناء، بينما الطلقاء على حالهم؟

لكن الحظ الحسن (وربما المصادفة بمنطق محمود العالم) جعل فى الخارج على رأس

(١٦) المرجع السابق – ص٣١٦

(١٧) محمود أمين العالم – الرحلة إلى الآخرين – المرجع السابق ص٦

تنظيم حدتو شهدى عطيه الشافعى، وعلى رأس تنظيم النواه محمود العالم. والتقى الشابان لعلهما تناقشا فى الفلسفة والثقافة بأكثر مما تناقشا فى الخلافات الصغيرة، وحملا على عاتقهما عبء التوحيد الفعلى.. وتنفيذ هذه الاتفاقات الحالمة التى تمت فى زنازين سجن القناطر.

وإذا كان شهدى قد فعلها متجاوبا مع إجماع تنظيمه (حدتو) فقد فعلها محمود العالم متحديا رأى قائد ومؤسس تنظيمه (النواه).. لكنه فعلها مسطراً لنفسه عملاً إيجابيا، ودوراً حاسماً فيما بعد.

وتأسس الحزب الشيوعى المصرى الموحد. وتواصل توحيد الشيوعيين ولعب محمود العالم دوراً هاماً فى ذلك، واكتسى فى ذلك بمرونة عالية، وقدره على إيجاد المشترك الذى يستحث الجميع على التوحد، وحقق فى ذلك ما أراد.

وأصبح واحداً من أبرز قيادة الحزب الشيوعى المصرى، الذى لم يعد بحاجة إلى أن يضيف إلى اسمه صفة الموحد أو المتحد فقط أصبح "الوحيد" دونما حاجة إلى الوصف بذلك.

وفى هذه الأيام تغلب السياسى على كل ما عداه وإنزوت الفلسفة لتفسح مجالا للسياسى المتقد حماساً وإن بقيت كل الكتابات والأفكار مغموسة بالعطر الفلسفى.

وكان المطلوب فى هذا الوقت (١٩٥٥ - ١٩٥٨) البحث عن صيغة يمكن أن توفق بين تأييد عبد الناصر الزعيم والقائد لمعركة العداء للاستعمار والصهيونية والرجعية، وبين التمسك بالمواقف المخالفة لرأى زعيم لايعرف ولايقبل الاختلاف. ونجح محمود العالم أكثر من غيره فى إيجاد صياغات متوازنة، لتوازنات كانت - على الأقل من الناحية النظرية - صعبة التحقق.

وفى هذه الأيام كانت "الناصرية" تندفع بكامل قواها باتجاه "القومية العربية" كفكرة وكسياسة وكمصير. وتوقف الماركسيون حائرين. فالماركسية تمتلك مفهوما محدداً للقومية يقول بأن السوق الاقتصادى المشترك هو الأساس فى دعوة القومية. ولا سوق عربى مشترك. إذن لاقومية عربية.

ويتحتم البحث عن نقطة توازن.

فالشيوعيون يرون أمامهم جماهير عربية هائلة تندفع تحت رايات القومية. بينما أفكارهم تقف حاجزا بينهم وبينها. ويكلف المكتب السياسى للحزب الرفيق فريد (محمود العالم) باعداد تقرير عن الموقف من القومية العربى. وكما إعتاد أيام الشباب تزامل مع عبد العظيم أنيس - الرفيق سيد فى إعداد تقرير حاولا أن يجدا فيه مخرجاً.

١ ـ أن القومية العربية هى حصيلة تاريخ مشترك لجماعة من الناس عاشوا وتآلفوا وناضلوا معاً مئات السنين.

٢ ـ القومية العربية لها لغتها الواحدة التى تحمل تراثها، وخلاصة خبراتها التاريخية.

٣ ـ القومية العربية تشترك فى رقعة واحدة من الأرض مهما اختلفت وتعددت مظاهرها الجغرافية.

٤ ـ القومية العربية لاتشترك فى حياة اقتصادية واحدة (هنا يكون الجرح الماركسى موجعاً) لكن هذه المشكلة ليست عائقاً أمام وجود القومية العربية لأنه من الواضح أن هذه الحقيقة مرتبطة تماماً بأن دولا استعمارية سيطرت على مقدرات وإمكانيات وثروات أجزاء من الوطن العربى.. ولقد كانت السوق العربية المشتركة موجودة فى الماضى قبل الاحتلال الغربى بشكل أو آخر، وعمل الاستعمار على تحطيم هذه السوق بوعى، والقضاء على تكامل الانتاج فى الوطن العربى، ومع ذلك فأسس التكامل فى الانتاج لاتزال قائمة، وإن متناثرة تقوم بينها الحدود المفتعلة وفى محاولة للتغلب على رفض الفكرة القومية يواصل التقرير «ومهما كانت الفوارق السطحية التى تبدو لنا هنا فى مصر مقنعة للبعض منا بأننا فى نهاية الأمر مختلفون نفسيا عن بقية العرب إلا أن هذه النظرة ليست إلا بقايا الانعزالية فى مصر إزاء القومية العربية» ثم محاولة أخرى للإغراء «أن القومية العربية فى جوهرها حركة شعبية نضالية معادية للاستعمار. فالاستعمار هو الذى أقام الحدود والحواجز فى وجه هذه القومية.. وهى بالضرورة حركة تقدمية من الناحية الاجتماعية» (١٨)

وبرغم هذا الجهد من جانب الشيوعيين فى التوافق مع عبد الناصر.. إلا أن مبدأ

(١٨) مفهوم القومية العربية بقلم الرفيقين فريد وسيد مطبوع بالرونيو مكتوب على الآلة الكاتبة مزيل باسم الحزب الشيوعى المصرى (نسخة أصلية)

الاختلاف لم يكن مقبولا خاصة وأنه لمس الجرح الناصرى الحساس - «الديمقراطية» وبدأت نذر الصدام من جديد فى نهايات عام ١٩٥٨.

ولأن محمود العالم كان واحداً من أبرز القادة فقد جرت المحاولة الأخيرة للتطويع معه.

ودعى لمقابلة أنور السادات (نائب الرئيس والأمين العام للإتحاد القومى): "تمت المقابلة من خلال د. يوسف ادريس بينى ممثلا للمكتب السياسى للحزب، وبين أنور السادات فى منزله بالهرم فى أكتوبر ١٩٥٨، استمرت المقابلة من العاشرة مساء حتى الرابعة صباحاً، وكانت جادة وجافة، دعا فيها أنور السادات إلى حل الحزب ودخول الاتحاد القومى كأفراد، وقلت له إننا على استعداد للتعاون بشكل تنظيمى داخل الاتحاد القومى محتفظين بمنبرنا المستقل.. وبعدها بيومين تم إعتقال عدد محدود من الرفاق فطلبت مقابلة السادات ولكنه لم يقابلنى" (١٩)

وفى أول إشراقات عام ١٩٥٩ يطرق الجديد الحديد.. ويعتقل مئات ثم آلاف من الشيوعيين ويكون محمود العالم معهم هذه المرة. وتكون محنة لامجال للحديث عنها هنا تقبلها الشيوعيون صامدين.

لن نتحدث عن السجن والتعذيب والمحاكمات العسكرية فقط سنورد أبياتا من شعر قالها محمود العالم.

ما أكثر ما سقط رفيق
ما إرتد رفيق
ما إنسد طريق
ما إتقد حريق
وإنطفأ بريق
والأغنية مازالت تمضى، تصعد، تمتد
تبرق ترعد

---

(١٩) أحمد حمروش - شهر يوليو - المؤسسة العربية للنشر - بيروت - ١٩٧٧ - محضر نقاش مع محمود أمين العالم ص٤٥٥

في قلب الليل الممتد" (٢٠)

ويمتد الليل حتى ابريل ١٩٦٤

●●●

ولعله من الضرورى الآن.. أن نتوقف لنتحدث عن أمرين أساسيين يشكلان جزءاً هاماً من ملامح صورة السياسى.. فى محمود العالم.

- الموقف من التجربة السوفيتية

- الموقف من التجربة الناصرية حال تحالفه معها.

وفيما يتعلق بالتجربة السوفيتية كان محمود العالم متمسكا بما كان الجميع يعتقد أنه الثوابت الثابتة التى لاتكون الماركسية بدونها.

.. «أن الماركسية تؤكد منذ البداية أن الديمراطية ليست مفهوماً متعالياً. فليس ثمة مايسمى بالديمقراطية المطلقة، أو بمجرد الديمقراطية. فكل ديمقراطية هى ديمقراطية طبقة من الطبقات أو مجموعة من الطبقات المتحالفة. وكل ديمقراطية هى بالضرورة ذات طابع مزدوج، أنها ديمقراطية لهذه الطبقة أو تلك الطبقات، وهى فى الوقت نفسه دكتاتورية ضد طبقة أو طبقات أخرى" (٢١)

هذا عن الديمقراطية، فماذا عن مسألة الحزب الواحد؟: "الحقيقة أن الحزب الواحد المسيطر فى الاتحاد السوفيتى لم يكن جوهر التطبيق الاشتراكى، ولم يكن إختياراً متعسفاً من جانب البعض، بل كان ضرورة أملتها المواقف المعادية للأحزاب البرجوازية الصغيرة فى مواجهة الثورة السوفيتية. أن الثورة الاشتراكية تحتم الحزب الطليعى الذى يمثل الطبقة العاملة فكراً ومصلحة، والذى يقودها لتحقيق أهدافها التاريخية، ولكن هذا لايتناقض مع امكانية التحالف مع أحزاب أخرى لتحقيق هذه الأهداف. والحزب الواحد فى التجربة السوفيتية كان ضرورة موضوعية خاصة بهذه التجربة" (٢٢).

---

(٢٠) محمود أمين العالم - أغنية الانسان - المرجع السابق ص١٣٨

(٢١) محمود أمين العالم - الديمقراطية والماركسية - مقال - الهلال - يونيو ١٩٦٥

(٢٢) محمود أمين العالم - ماركيوز أو فلسفة الطريق المسدود - دار الآداب - بيروت - ١٩٧٢ ص١٠٣

ولعلنا نحن الماركسيين كنا نعجب أيما إعجاب به وهو يؤكد "إن إنسانا جديداً ينشأ فى البلاد الاشتراكية لا على أخلاق الصدق والحب والأمانة والعمل والحرية وغيرها من القيم التقليدية فحسب، بل ينشأ كذلك على كراهية العدوان والاستغلال العنصرى والجنسى والطبقى، وينشأ على محبة السلام والمساواة والإخاء البشرى. أن مجال القيم الأخلاقية يتسع ويتعمق فى التجربة الاشتراكية" (٢٣).

ولعلنا أعجبنا بتبريره الأدبى الصنعة والصياغة لسور برلين: أحسست به جداراً زجاجياً يحمى باقة من الزهور.. يحمى الرابطة الانسانية التى لفحنى دفؤها" (٢٤)

وحتى عندما يلتقى بفتاة موسكوفية تقدم نفسها له قائلة: أنا مسافرة بلا حقائب أيديولوجية، أعيش فى هذا المجتمع دون أن أنخرط فى عقيدته.. وعندما تتهكم على هذا التعلق الصوفى الصارخ بلينين، يعلق هو قائلا "لا أعرف، قد تكون هناك بعض مغالاة مظهرية فى الاحتفاء والاحتفال بلينين، على أن لينين ليس مجرد شخص. وإنما هو فكر"(٢٥)

ومحمود العالم لم يستمتع فقط بمواقف كهذه، لكنه استمتع أيضا برفضه الحاد للمجتمع الرأسمالى.. فعندما يزور أوروبا الغربية يقول "وقد يغلب على هذه الرحلة إرادة الحكم والتقييم، بل والمحاكمة أحيانا، أكثر مما يغلب عليها الوصف المحايد والتلقى السلبى، بل أعترف صراحة أنها رحلة تتحرك من موقف ومن رؤية أعترف أنها تتميز بعدم الحياد، تتميز بالانحياز، وأنا أؤمن بأنه لاشئ محايد" (٢٦).

لكنه لم ينظر أبداً للماركسية باعتبارها شيئاً وافداً. "والماركسية ليست فكراً دخيلا علينا، أو مجرد زى عصرى مستورد للتباهى الفكرى أو المزايدة الثورية، أنها فى الحقيقة إمتداد خلاق لأشرف ما فى تراثنا العربى الإسلامى من قيم علمية تجد إرهاصاتها الفكرية

---

(٢٣) المرجع السابق - ص١١٩

(٢٤) محمود أمين العالم - البحث عن أوروبا - المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت - ص١٩٧٥ - ص١١٥

(٢٥) المرجع السابق ص ١٤٧

(٢٦) المرجع السابق ص٥

الأولى عند ابن خلدون وابن القيم وجابر بن حيان وابن رشد وعشرات غيرهم. كما تجد إرهاصاتها النضالية الأولى فى كثير من الحركات التقدمية الجماهيرية فى تاريخ أمتنا العربية، والماركسية كذلك هى خلاصة فكرية لنضال البشرية كلها من أجل الحرية والرخاء والسعادة" (٢٧)

ومن هنا كان تمسكه بالدفاع عنها تمسكا بالدفاع عن تراث عربى أصيل، وعن البشرية ككل.

وهو أيضا ينظر إليها - ومنذ الزمان القديم - نظرة عقلانية علمية "الماركسية ليست وصفة جاهزة نهائية، بل هى منهج جدلى خلاق متجدد ملتحم بحركة الجماهير البشرية فى واقعها العام والخاص، فى واقعها الاجتماعى والطبيعى" (٢٨)

وهو أبداً لم يخدع نفسه أو يخدعنا إزاء واقع الماركسيين العرب.. "لست أنكر أن الماركسية فى التطبيق العربى خلال سنوات طويلة قد تورطت فى كثير من الأخطاء، ولعل المصدر الرئيسى لهذه الأخطاء هو إستخدامها كقوالب جامدة، جاهزة، ونقل بعض خبراتها التطبيقية نقلا آليا، خرجاً عن حقيقتها كمنهج للدراسة العينية المحددة، للواقع العينى المحدد، واستلهام هذه الدراسة وإختبارها وتنميتها بالنضال الجماهيرى "ثم.. والغريب أنه برغم الرحلة الطويلة التى قطعتها الماركسية فى حياة تاريخنا العربى الحديث لانكاد نجد دراسة ماركسية شاملة معمقة لواقعنا الاقتصادى أو الاجتماعى أو السياسى أو الثقافى. ما أكثر التحليلات المرحلية التى تتخذ طابع الاستراتيجية البعيدة دون سند من تحليل علمى تفصيلى دقيق شامل، وما أكثر ما يطغى على كثير من التحليلات الماركسية طابع التأمل التجريدى، لا طابع الدراسة العينية الدقيقة. بل ما أكثر من إستلهموا بعض نصوص أو فصول من الماركسية ليجعلوا منها تكأة لسلوك مغامر أو فوضوى، ولعلى أشير بهذا بوجه خاص إلى بعض قادة فصائل المقاومة الفلسطينية وبعض مفكريها وكتابها" (٢٩).

فقط نتذكر أن هذه الكلمات كتبت عام ١٩٧٢

(٢٧) محمود أمين العالم - ماركيوز - المرجع السابق ص١٦
(٢٨) المرجع السابق
(٢٩) المرجع السابق ص١٥

لكن محمـود العالـم لم يكن راضيا عمـا يجرى، بل لعله كان يستشـعر الزلزال قبل أن يقع بزمن طويل.

ولنقرأ معا بعض أسطر مـن هذا التنبؤ الحزين الذى سبقنا إليه جميـعا.. فى عام ١٩٦٥ "لاشئ أصلى من أجله مثل ما أتطلع وأصلى لروح الثورة، روح الثـورة فى الانسان، روح الثورة فى العصر، روح الثورة فى العالم أجمع.

أن رايات الحق والفـضيلة والتـقدم تكاد تـتمـزق حزينة بين الأيدى الصـديقة، قـبل أن تتمزق بين الأيدى الباغضة الكارهة.

أن روح الثـورة فى الأدب، فـى الفن، فى الفكر، فى الحـيـاة كلهـا تتـلوى تحت رمـاد متراكم.

لا أقول أن روح الثورة فى العالم تحتضر، ولكن أحس أن روح الثورة فى العالم مشتتة، مفتتة، ضائعة، حزينة".

ثم يمضى ليعـزف على ذات الوتر الحزين "أغلب ما تقرأ من كتب. أكـثر من تقابل من أصـدقـاء، من هذا الركن القـصى فى العـالم، أو هـذا الركن القـريب، تطـل منهم روح الانتظار، والترقب، والـغربة، إن لم تطل منهم روح اليأس من الـثورة، روح العكوف على العابر الجزئى من اهتمامات الحياة اليومية».

وتمضى المرثيـة الحزينة "لقـد تحـققت الأحـلام ولكنها عنـدما تحـققت اصطبـغت بلون التـراب الداكن، ولم يعـد أصحـابهـا يتـحدثون بلغـة الحلم والبطولة، وإنما بلغة الأرقـام والتـجـارة، بل إختلـف الحالمون الثـوار وشـهـروا الأسلحـة فى وجه بـعضـهـم البـعض.. واحسرتاه" (٣٠).

ثم نأتى إلى تجربته مع النظام الناصرى.

الأفراج، حل الحزب، الانضمام الجماعى أو شـبه الجماعى للاتحاد الاشتراكى والتنظيم الطليعى. كانت هذه جميـعا سمات مشتركة بين الجميع تقريبـا. لكن محمود العالـم وصل إلى قمـة التنظيم الطليعى الذى كان واحـداً من أهم أدوات الحكـم.. فيما تسـرب الآخرون

(٣٠) محمود أمين العالم - مقال - المصور ٣١ ديسمبر ١٩٦٥

مللا، أو أبعدوا إستثقالا لظلهم، أو إستخفافا بشأنهم.

ومن هنا تكون تجربة محمود العالم فى التحالف مع الناصريين تجربة فردية أو إنفرادية. ولقد جر عليه ذلك كثيرا من الملاحظات وربما التقولات، لكن ما كان يحميه أنه كان متسقا بل ومنفذا للخط العام الذى إختطته الحركة الشيوعية لنفسها فى ذلك الحين. وإن صعوده يعتبر تميزاً.. وليس تحيزاً للناصرية.

لكن محمود العالم الخارج لتوه من سجن طويل، كان ككل الشيوعيين منبهراً بما يجرى حوله. فعبد الناصر فى قمة الصعود السياسى والجماهيرى، والميثاق الوطنى أعتبر من جانب الكثيرين وثيقة تقدمية تنحاز إلى الاشتراكية العلمية.

ويجسد محمود العالم إنبهاره متحدثا عن الميثاق" بهذا المعنى يصبح الميثاق ظاهرة تاريخية جديدة، هى حصيلة الواقع الثورى العربى، وخلاصة خبراته الناضجة "ثم.." نجد فيه تحليلا علميا رصينا للثورة العربية، والعوامل المتصارعة داخلها، وإستخلاصا للدروس الموضوعية من نكساتها وانتصاراتها، ثم نجد إرتفاعاً بمفهوم الديمقراطية إلى مستوى جديد من الواقعية والموضوعية يخلصها من الضباب الليبرالى الشكلى، ويجعلها تعبيراً صادقاً عن الواقع الاجتماعى، وأداه فى يد الجماهير الشعبية من أجل السيطرة على هذا الواقع وتوجيهه لمصلحتها "ثم.." وأكاد أقول أن الميثاق تاريخ جديد للحياة، وتاريخ جديد للفكرة فى بلادنا، بل فى الوطن العربى كله" (٣١)

بل هو يقول أن "الديمقراطية فى الميثاق ليست واجهات دستورية فارغة وإنما هى حركة موضوعية تاريخية للجماهير تؤكد سيادتها، وتضع السلطة كلها فى يدها، وتكرسها لتحقيق أهدافها، إنها ديمقراطية اجتماعية سياسية، وديمقراطية فكرية كذلك" (٣٢).

أن ما رفض عام ١٩٥٨ وكان سببا للسجن الطويل يقبل الآن، وتقبل معه حتى فكرة الحزب الواحد.. فالتعددية الحزبية التى يأخذ بها المجتمع الرأسمالى" قد لا تصلح تعبيراً عن الحرية فى مجتمع اشتراكى، ذابت فيه الطبقات إلى شعب عامل موحد الإرادة والمصلحة أو فى طريقة إلى هذا. بل قد تكون الدعوة إلى تعدد الأحزاب وتنظيم المعارضة

(٣١) محمود أمين العالم – معارك فكرية – دار الهلال ص١٦٣

(٣٢) المرجع السابق ص١٦٩

دعوة فى الحقيقة إلى إعادة إحياء الطبقات المصفاة وتسليحها تسليحا تنظيمياً وسياسياً، تمهيداً لاحيائها اقتصاديا. وهكذا تصبح هذه الدعوة دعوة الثورة المضادة، دعوة مناقضة للحرية" (٣٣).

ولعل من حق محمود العالم علينا أن نقرر أن هذه القناعات كانت قناعات المناخ العام للماركسيين المصريين لكنه مثل عدد قليل من القادة كتب فأكتسب القدرة على أن يضع أفكاره على محك الانتقاد عندما آن آوانه.

لكن حماس محمود العالم للتجربة الناصرية دفعة للتصادم مع بعض أصدقاء الأمس.. فكانت واقعة «الفتى مهران» وعبد الرحمن الشرقاوى. فاذ كانت المسرحية تتألق على خشبة المسرح، وجه محمود العالم نقداً لاذعا للإيحاءات والرمز. فالمسرحية تنتقد وبشدة أرسال قوات مصرية لليمن.. وتنتقد أيضا من قرروا حل الحزب والانضمام للاتحاد الاشتراكى رغم أن الشرقاوى نفسه كان قد انسحب من أى عمل ماركسى اثناء وجود رفاقه فى السجون.. وانضم هو نفسه للاتحاد الاشتراكى.

ويتوقف تحديداً أمام الانتقاد لحل مجموعات الفتوة (أى الحزب) والانضمام إلى الحاكم. فيشعر وكأن الكلمات موجهة ضده وضد رفاقه فيكتب: "أن المسرحية تغمز وتلمز بهؤلاء الذين يصفون جماعات الفتوة ليندمجوا مع جيش الأمير، والمسرحية بهذا توحى بعض الايحاءات التى تبذر بذور التشكك والريبة فى اللقاء الثورى الذى يتم فى بلادنا بين مختلف القوى الاجتماعية المؤمنة بالتقدم والاشتراكية. وهو لقاء ثورى جاد تحت راية المبادئ لايفضى إلى تصفيه للثوار، بل إلى توحيد لحركة الثورة كلها" (٣٤).

.. وعندما يحتج عليه الكثير من رفاق الأمس، ليس لأن فهمه للرمز كان خاطئا، وإنما لأن الرمز يأتى فى ظل بطش بأى خصوم، ولأن جهاز الحكم لايغفر ولايتقبل الغفران، الأمر الذى أفزع الشرقاوى فزعاً منحه تعاطف الكثيرين.. فإنه يرد عليهم بمقال حاسم "الصدق فوق الصداقات" ويسأل ويجيب:

" هل ندمت على ما كتبت.. لا

---

(٣٣) المرجع السابق ص٢٠٩

(٣٤) محمود أمين العالم - مقال - المصور ٢١ - ١ - ١٩٦٦

هل أدركت خطأ فيما قلت.. لا" [٣٥]

لكنه هو نفسه يشعر بالمأزق. فهو فى قمة التنظيم الطليعى. وهو يتولى مسئوليات هامة، ومع ذلك لايستطيع أن يقول مايريد، أو حتى بعض ما يريد فهو إذ يكتب مقال ينتقد فيه وبشدة الاتحاد الاشتراكى تصادر أخبار اليوم رغم موقعة الهام.. فيلجأ إلى الشعر.. ليقول رمزاً بعضا مما يؤرق ضميره الثورى.

"أشعر أن جدار الصمت بقلبى ينهار
لكن لا أعرف كيف أقول
يا قلبى البائس لاتحفل
يا قلبى العانس لاتجفل
لاتأبه بهموم الشمس
همك أكبر
خض وتفجر
وتجبر
لاتأبه بالنجم اللماح
خذلتك نجومك يا ملاح
سر وأرفع رايتك السوداء
وأرفع مجدافك للأنواء
قد أصبح ملاحك قرصان
وإفتقد النجمة والشطأن" [٣٦]

ترى من هو القرصان هنا؟

وهو يعزى نفسه أو يعذبها. إذ يصب الغضب الغاضب على الشعارات الرنانة المتعالية فى الزمن الناصرى..

يا ويلى من تعبير يتعالى

(٣٥) محمود أمين العالم – الوجه والقناع – دار الأداب – بيروت – ١٩٧٣ ص١٢٨
(٣٦) محمود أمين العالم – أغنية الإنسان – المرجع السابق ص٢٥

لكن لايحسن أن يتجسد أفعالا
لايمكن أن يمسح فى الليل دموعاً
لايملك أن يطعم طفلا يتضور جوعاً
لايملك أن يرفع رأساً يتمرغ فى الأوحال
لايملك أن ينسج رغبة
فردوس محبة
للمشتاقين، المحرومين، المقهورين
لايملك أن يملك
لايملك أن يتحرك ويحرك" (٣٧)

.. وهو يستشعر الغربة وسط هؤلاء الغرباء، ويحن حنينا موجعا لحزبه القديم ورفاقه القدامى

"لكن يا ملكوت الصمت
لا أملك أن أركب للشمس
لا أملك أن أركب
أنا أمشى فى ملكوتك وحدى
أتمنى.. أتأمل
أحلم.. أتكلم
لكنى لا أملك
لا أملك أن أملك
ذلك أنى وحدى"

●●●

ويأتى ١٥ مايو، بما حمله من تداعيات ويكتب: "أن الأنظمة التقدمية العربية لم تعد تلهم الوجدان العربى – كما كانت تلهمه من قبل – نموذجاً جدداً لمجتمع عربى جديد، لقد

(٣٧) المرجع السابق ص٣٣

خفت بريق التطبيقات الاشتراكية سواء من الناحية الاقتصادية أو السياسية، أو الناحية الديمقراطية، فلم تستطع حتى اليوم أن تقود معركة التحرير الوطنى للأرض العربية المحتلة قيادة متصاعدة مظفرة، وأن تواجه الاحتلال الإسرائيلى بحماس واقتدار، لم تستطع أن تحقق تنمية اقتصادية معجلة تقيم بها أساساً للتغيير الاقتصادى الجذرى، وتقضى بها على التخلف الاجتماعى، ولم تستطع أن تحقق تنمية ديمقراطية تتيح للجماهير مشاركة إيجابية فعالة فى التغيير والتثوير الاجتماعى" (٣٨).. لكن نصيبه من ١٥ مايو يكون شديد القسوة. يسجن، يحاكم بتهمة الخيانة العظمى، يفصل من عمله، لكنه يواصل.. ينطلق إلى باريس لتتواصل معارك الدفاع عن الديمقراطية. وعروبة مصر.

ومع إنحدار التجربة الساداتية يتجدد شباب الفيلسوف، وتعود أزهار الثورى للتفتح.

وينطلق محمود أمين العالم من جديد.. وكأنه لم يزل بعد شابا ليخوض تجربة الثورة المتجددة.. والفعل الثورى المتجدد.

(٣٨) محمود أمين العلم - ماركيوز - المرجع السابق ص ١٨٠

والآن..
هل يمكن؟ بل هل نتجاسر؟

فى نهايات العالم المؤلم ١٩٦٧ وفيما كانت مصر تفتش ثيابها عن أسباب مقنعة - أو حتى غير مقنعة - لهذه الهزيمة الشديدة القسوة، فوجئنا بصفعة مدوية تحاول أن تجرنا من أعناقنا كى تفرض علينا أن نفتش عن أسباب للهزيمة فى عقولنا.. وليس فى ثيابنا.

أزهرى ليبرالى النزعة هو الشيخ محمود الشرقاوى كتب مقالا حاداً كمشرط جراح عنوانه «محنة الفكر التقدمى فى مصر» يتحدث فيه عن كتب - هى الأكثر مبيعا فى سوق الكتاب المصرى وربما العربى وعلى مدى سنوات طويلة - وهى كتب تشكل بعضاً مهماً من المناخ الفكرى والعقلى - أو بالدقة اللاعقلى - الذى يهيمن علينا وينتج الكثير مما نقول أو نفعل أو نفكر.

ويقرأ لنا محمود الشرقاوى من هذه الكتب قائلا:

«أى شقاء فكرى وروحى يجده دعاة التقدمية الفكرية فى عالمنا العربى عندما يرون فى بعض الكتب التى يطالعها الناس ويتناقلون ما فيها أن «نوحا» عليه السلام بنى سفينته من عظام حيوان يبلغ طوله مسافة ما بين السماء والأرض، ويبلغ عرضه مسيرة عام كامل. وأى شقاء للروح والعقل أكثر من أن يقرأ دعاة التقدمية فى الفكر الدينى ما يقرأه الناس فى عالمنا العربى كله فيجدون فى كتاب من كتب تفسير القرآن الكريم حديثاً منسوباً لحذيفه مرفوعا للنبى صلى الله عليه وسلم يقول: «أن يأجوج ومأجوج أمة، وكل أمة أربعمائة أمة، لايموت الرجل منهم حتى ينظر إلى ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح، وهم من ولد آدم، يسيرون فى خراب الأرض، وهم ثلاثة أصناف: صنف مثل شجرة الأرز، وصنف طوله وعرضه سواء عشرون ومائة ذراع، وهؤلاء لاتقوم لهم الجبال ولا الحديد، وصنف منهم يفرش إحدى أذنية ويلتحف بالأخرى، لايمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه.. ومن مات منهم أكلوه، مقدمتهم بالشآم وساقتهم فى خراسان يشربون أنهار المشرق وبحيرة طبريا، ومنهم من تنبت لهم مخالب فى أظفارهم،

وأضراسهم كأضراس السباع».

ويمضى الشيخ الشرقاوى متسائلا: "وأى تعاسة يحسها دعاة التقدمية فى الفكر الدينى وفى الحياة أكبر من أن يجد القراء العرب فى زيديهم وفى وفرة كاسحة كتباً تقول عن "الشيخ" أن نعليه تطيران وتضربان رأس الفاسق حتى يتلف.. وأن تابع الشيخ يمشى على الهواء والشمس تسلم عليه. وأنه - أى الشيخ - وهو فى المهد رضيع كان يمنع نفسه عن ثدى أمه فى رمضان من الفجر إلى الغروب لأنه صائم. وأن أهل بغداد رأوه رأى العين يقف على ماء دجلة والأسماك تجئ إليه أفواجاً فتسلم عليه وتقبل يديه ورجليه. وأن هذا الشيخ تشفع عند الله فى مريد له ليغفر له ذنباً عظيماً فلم يقبل الله للشيخ شفاعته فكف الشيخ يده عن تصريف أمور الكونية ومراسم الغوثية، وكان بعد ذلك أن قبل الله شفاعة الشيخ".

ثم يختتم الشيخ الشرقاوى قائلا "أن هؤلاء الذين يقرأون هذا اللون من الثقافة ويحرصون عليه سيقوم فى عقولهم منه سد عال منيع يحول بينهم وبين الفكر التقدمى.. سيكون من هؤلاء القوم جيش الظلام الذى يطمس ضوء الفكر التقدمى" (١)

ولم تزل هذه الكتب تصدر فى بلادنا بكثرة مثيرة للدهشة، وتباع بأسعار "مدعومة" بصورة تثير الريبة.. ولم تزل قادرة هى وغيرها على نسج خيوط جيش الظلام الذى يحول بيننا وبين التطلع نحو المستقبل.

•••

وفى الحالة المصرية.. فأننا نكتشف أن محاولات التنوير الأولى جاءت عبر مثقفين - أزهريين - مستنيرين. يمكن القول أن نموذجهم هو رفاعة الطهطاوى والشيخ حسين المرصفى وأمثالهما.

لكن هذا الجيل من المثقفين بسبب وضعيته (هو أزهرى - ودوما هو موظف حكومى) جعل ليبراليته محدودة بهذين الحدين. وجعل لها سقفا منخفضا.

فرفاعه الموظف الحكومى (والذى يحتاج دوما إلى مرتبه الشهرى) يظل دوما بحاجة

(١) مجلة الهلال - نوفمبر ١٩٦٧ - مقال: محمود الشرقاوى - محنة الفكر التقدمى فى مصر.

إلى تحييد الحاكم أو حتى كسب رضاه.. وبعد قليل من كتابات مبهمة فيها بعض من تمرد على نظام الحكم وأساليب الحاكم (٢) لايلبث أن يراجع نفسه متراجعا نحو كتابات يسودها تملق الحاكم (٣) (لاحظ هنا أن ظاهرة المثقف المتسب وظيفيا للحكومة ظلت ملازمة لنا جيلا بعد جيل.. وتوفيق الحكيم - نجيب محفوظ - زكى نجيب محمود - محمد أحمد خلف الله.. الخ.. نماذج متكررة لهذه الظاهرة).

ورفاعة "الأزهرى" يطوع ليبراليته لأزهريته. ففى حين كان ابن رشد يقول فى كتابه "فصل المقال": "نحن نقطع قطعا أن كل ما أدى إليه البرهان، وخالفه ظاهر الشرع، أن ذلك الظاهر يقبل التأويل" فإن رفاعة يتراجع ليجعل الظاهر غير قابل للتأويل فيحتاج كى يقول - مجرد قول - بدوران الأرض وكرويتها إلى دورة كاملة من الحكايات (ربما كانت مصنوعة).. ونقرأ: "ووقعت محاورة بين العلامة الشيخ محمد المناعى التونسى المالكى المدرس بجامعة الزيتونة ومفتى الحنفية العلامة الشيخ محمد البيرم المؤلف لعدة كتب فى المنقول والمعقول.. حول كروية الأرض وبسطها، البسط للمناعى والكروية لخصمه وممن قال من علماء المغرب بأن الأرض مستديرة وأنها سائرة العلامة الشيخ مختار الكنتاوى بأرض أزوات قرب بلاد تمبكتو" (٤)

أنه مايسميه د. مراد وهبه "بالأسلوب اللولبى".. ونبقى نحن مثقفى مصر وربما كل مثقفى العرب أسرى للأسلوب الطهطاوى.. أو بالدقة للمعطيات التى أثمرت هذا الأسلوب.. نبقى دوما.. وربما لأمد آخر أتمنى ألا يكون بعيداً "طهطهاويون". وحتى د. مراد وهبه وهو يتحدث بجسارة عن هذا الأسلوب اللولبى يجد نفسه مضطراً إلى القول:

"وأنا ألح على مشروعية هذا الأسلوب اللولبى فى اللحظة الراهنة، فهو الكفيل بتهيئة المناخ مستقبلا بالمعنى الذى أقصده" (٥)

---

(٢) راجع: رفاعة رافع الطهطاوى: تخليص الابريز فى تلخيص باريز وأيضا: مناهج الألباب المصرية فى مباهج الأداب العصرية.

(٣) مثل: رفاعة رافع الطهطاوى - أنوار توفيق الجليل فى سيرة بنى إسماعيل

(٤) رفاعة الطهطاوى: تخليص الابريز - طبعة ١٩٥٨ - القاهرة ص٩٧

(٥) د. مراد وهبه - جرثومة التخلف - مكتبة الأسرة - القاهرة ١٩٩٨ - ص١٩

.. ولعل د. مراد وهبه يكون محقاً.. ولعل من حقه أن يقول ذلك، فقط نتذكر ونذكر أن أستاذنا الطهطاوى، قد تركنا منذ قرابة القرن والنصف. تاركا لنا أسلوبه اللولبى.. ولم نزل نحن مثله لولبيون.. ولم يتهيأ المناخ بعد.. بل لعل جيش الظلام الذى تأوه منه الشيخ الشرقاوى قد إزداد ظلاماً وإظلاماً.. بسبب من عوامل عدة، منها مثلا تفاقم النشاط السياسى والفكرى والأرهابى لقوى التأسلم السياسى وتفاقم ظاهرة أسلمة السياسة وما تلاها من تداعيات.

•••

ويدفعنا هذا الأسلوب اللولبى.. أو بالدقة الطهطاوى إلى أن نظل معلقين ومتعلقين بالماضى ومتخيلين أن مشروعنا المقبل يجب أن يرتبط به، نشد أنفسنا إليه قبل أن يشدنا هو نحوه، ولكن حتى هذا التعلق السلفى بالماضى يبقى إنتقائياً.. وبدائيا وعاجزاً عن تمثل الظواهر وإستيعابها وإفراز المعطى الجديد من خلالها. وإنما هو تعلق خال من إعمال العقل، إنطباعى، لحظى، جزئى، وإنتقائى.

وحتى الانتقائية فان ثمارها تأتى عبر المقارنة بين الصوت الخافت والخائف للتقدمية "اللولبية" وبين ضجيج التأسلم والأختيار الرجعى.. لصالح ضجيج التخلف.

هل نأخذ مثالا من الشعر؟

إذ نقلب "التراث" يختار البعض ولعله يهتدى ويقتدى ببيتين من شعر يقول:

لنا الدنيا وما أمسى عليها

ونبطش حين نبطش قادرينا

بغاة ظالمين وما ظلمنا

ولكنا سنبدأ ظالمينا

والبعض الآخر.. "اللولبى"، يحاول دون جدوى أن يغرس فى تربة الفعل "مثالية" يقول بها شاعر آخر:

وإنا لتأبى لنا أخلاقنا شرفاً

أن نبتدى بالأذى من ليس يؤذينا

هذا النموذج، نموذجى

لأنه يوضح أسلوب النقل السلفى الانتقائى البعيد عن الدراسة العقلية والعقلانية التى تتمثل الماضى فتستوعبه وتستعين به فى تطلعها للمستقبل وفق سماتها الخاصة.. وهو إنتقاء يأتى فى الأغلب لصالح التراث الظلامى الذى يزداد ظلامية فى أيامنا هذه.

•••

وهنا نسأل أنفسنا.. كم سنة من التقدم تفصلنا نحن العرب "الجنوبيون" عن هذا الشمال المندفع نحو التقدم بصورة متسارعة.. كم سنة من العمل؟ كم كتابا؟ وكيف ومتى يمكن أن نتخطى حاجز التخلف؟

فى مطلع القرن، ومع نفحة ليبرالية شجاعة (شبلى شميل - فرح أنطون - سلامة موسى - نقولا حداد - ولى الدين يكن - عبد الرحمن الكواكبى) تصور البعض أننا قادرون على إجتياز بحر التخلف الفكرى والعقلى بسرعة.. و..ننطلق.

فصاح حافظ إبراهيم مبتهجاً فى تفاؤل متسرع:

آن ياشعر أن تفك قيوداً

قيدتنا بها دعاة المحال

فارفعوا هذه الكمائم عنا

ودعونا نشم ريح الشمال

لكن ريح "الشمال" لم تأت كى نشمها.. ولم نذهب نحن إليها، بل لم نتجاسر على إستدعائها. ومالبثت نفحة الليبرالية أن تراجعت.. وسادت سطوة سياسية وفكرية تستبد بنا وبعقولنا وتحرمنا حتى من إستخدام العقل.. الذى أصبح سلاحاً محرماً إستخدامه، وكأنه من أسلحة الدمار الشامل.

ونعود فنسأل ماهى المسافة؟ وكيف نقطعها؟ وكم من السنين نحتاج؟

نعود إلى الوراء.

لنسأل متى تم تقييد الفعل عندنا، وإطلاق سراح العقل هناك؟

ربما كانت العلامة الفارقة هى إبن رشد. إذ أمر المنصور باغتيال كتبه، ونفيه إلى

"اليسانه" فى هذا الوقت قرر فريديريك الثانى خلال معركته مع تشدد رجال الدين المسيحى ترجمة ونشر كتب ابن رشد.

هذه علامة فارقة. دفعتنا نحن بعيداً بعيداً عن العقل، وسعت بهم حثيثا حثيثا نحو آفاقة المبهرة.

ونعود لنسأل عن المسافة. وبعد هذا المثال تصبح الاجابة سهلة ويسيرة.

المسافة هى بالتحديد إصلاحان:

إصلاح يسعى نحو تجديد دينى مستنير يستند - ربما - إلى المقولة الفقهية" حيث تتحقق مصلحة الناس فثمة شرع الله" وإصلاح آخر عقلى تنويرى يستند إلى المقولة الصارخة "لاسلطان على العقل إلا العقل نفسه"

عصران من الإصلاح سبقنا بهما "الشمال"

عصر الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر

وعصر التنوير فى القرن الثانى عشر

والاصلاحيين متلازمين فأنت إذ تسعى لتحرير العقل وتندفع نحو التنوير تصطدم حتما بسلطان الفهم المنغلق للدين.

والعكس صحيح أيضا.

وإذ نتأمل الأمر.. نجد الفارق خمسة قرون فى حالة وثلاثة فى حالة أخرى، فاذا حسبنا حساب "تسارع" معدلات التقدم العلمى والتكنولوجى وجدنا المسافة تتضاعف بما يخجلنا ويحبطنا.

لكننى ممن يعتقدون أن قدراً من الشجاعة والقدرة على تحدى السائد والمألوف والمتعارف عليه، وبعضاً من التخلى عن "الطهطاوية" اللولبية يمكنها أن تنقلها نقلة نوعية نحو آفاق التقدم، وبسرعة أكثر إسراعاً مما نتخيل.

فقط أحذر من أن البعض يتصور أن تقدمنا يحتاج فقط إلى استيراد بعض من تكنولوجيا الغرب.. وهذا وهم فالبدوى إذا ما أناخ راحلته وركب الكاديلاك يبقى كما كان، وبكل مايغلف عقله من بدائية متخلفة واستناد إلى الخرافة وتقيد بالسائد. طالما بقى

عقله معطلا عن الفعل الناقد والمنتقد للسائد، وعاجزا عن فهم متطلبات خوض المعركتين الأساسيتين.. الاصلاح الدينى.. والتنوير العقلى. أن تخلفنا هو فى واقع الأمر تخلف حضارى وليس معرفى فهناك كثيرون من مثقفى بلادنا يدرسون الفيزياء أو علوم الفضاء وفق أحدث منجزاتها فاذا ما تركوا "المعمل العلمى" وعادوا إلى حياتهم اليومية تحدثوا عن السحر ومارسوا اليقين بالخرافة، وبشروا بالتخلف الفكرى والعقلى ومثل هؤلاء ليسوا مؤهلين بأى حال من الأحوال لتحقيق عملية "خلق" علمى.. فهم فقط طلاب يدرسون أو يجترون المعرفة المصنوعة لدى الغير.. أنهم عاجزون حضارياً وعاجزون عقليا عن الابتكار والخلق، لأن الابتكار والخلق يحتاجان إلى عقل قادر على تحدى المألوف وعلى رفض السائد والمتوارث والتطلع نحو جديد مستقبلى.

نحن لانحتاج إلى مجرد استيراد تكنولوجيا.. وإنما نحتاج أساسا إلى تقليص دور الخرافة، وإلى تقليل أو إلغاء هامش "الحريات" التى يقف العقل خائفا أمام فحصها فحصا إنتقاديا.

"كلما زاد عدد المحرمات زاد تخلف المجتمع" (٦)

وإذا كانت مجتمعاتنا تمتلك حساسية فائقة إزاء إعمال العقل (لاحظ ماحدث لبعض من حاولوا إعمال عقولهم: طه حسين - على عبد الرازق - محمد أحمد خلف الله - نصر حامد أبوزيد - فرج فوده..) فان هذه الحساسية تتضاعف إذا ما اتجه العقل الانتقادى نحو مجالات الدراسات الدينية أو السياسية، ومن هنا فاننا نتوارث - وبرضاء لا أدرى مصدره - محرمات نمنع أنفسنا بأنفسنا من الأقتراب منها. (ألسنا طهطاويون؟)

فهل نتجاسر على كسر الحاجز الوهمى الذى يقيد عقولنا عن فحص ومناقشة وربما انتقاد العديد من الموضوعات التى إصطلحنا أو تواطأنا على أن أعمال العقل إزاءها ليس مقبولا، ولامسموحاً به؟

فان فعلنا ذلك نكون قد اقتربنا كثيراً.. بل وكثيرا جداً من الطريق المؤدى لتقدم حقيقى ومندفع نحو الامام. ذلك أننى أعتقد أن ما نعانى منه ليس تخلفا تكنولوجيا، وإما هو

(٦) د. مراد وهبه - المرجع السابق - ص١٥

بالأساس نقص فى استخدام الأدوات العقلية وفى التعامل بها مع الكون.. والحياة. أنه تخلف حضارى كما قلت لن يشفينا منه استيراد كل أدوات التكنولوجيا واستخدامها.. فذلك لايفيد إلا إذا نجحنا أولا فى استخدام العقل استخداما يطلق سراحه ويحرره من كل قيد إلا العقل نفسه، ويجتاز به حاجز الوهم بأن ثمة مجالات لامجال لإعمال العقل فيها.. فطالما حجب العقل عن الفعل الانتقادى بقينا على عجزنا وان امتلكنا - عبر الاستيراد - كل تكنولوجيا الأرض.

أن إطلاق سراح العقل وتفعيله سواء فى مجال التجديد الدينى (أى التجديد فى فهم المعتقد الدينى والتعامل معه فى إطار معاصر ومتلائم مع ما نحن فيه زمانا ومكانا). أو فى مجال الاستنارة وغرس غابات التنوير العقلي.. وإطلاق سراح الاستنارة، وإساحة النظر الانتقادى فى مختلف المجالات، وإحترام الآخر.. والانحناء أمام حقه فى القول والفعل، أن تفعيل العقل هو مايمكنه أنْ يسرع بنا وفى كل المجالات نحو آفاق غير محدودة.

ذلك أن أول طريق التقدم هو تخطى حاجز الخرافة والأسطورة والتغلب على مبطلات دور العقل.. والاندفاع بالعقل نحو آفاق رحبه لايقيده فيها سوى العقل نفسه.

فهل نستطيع؟

بل هل نتجاسر؟

قد تكون الأجابة بنعم أو.. لا.. لكن المؤكد عندى أنه بدون ذلك، وبدونه كله غير منقوص لن نستطيع ولو بأى قدر أن نتلاءم مع القرن القادم، وكأننا إستطعنا أن نتلاءم مع الحاضر أو حتى مع ما مضى من سنوات.

لكن الأغتراب المقبل سيكون أشد قسوة، وسوف يجعلنا أكثر تخلفا حتى عما نحن فيه من تخلف متخلف.

القرن القادم آت. لن نستطيع إيقاف مسيرته، فقبل أن يدهمنا لنحاول أن نفعل شيئا يقترب بنا ولو قليلا مما يتحتم علينا أن نفعل.

فلنحاول

خاتمة

ومـا من خاتمة. فنحن لم نبـدأ مسـيرتنا الجـادة بعد.

فلنبدأ.

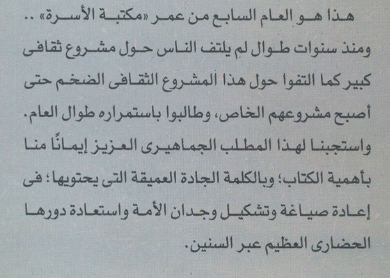
فهـــرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الأيداع: ١٤١٠٦ / ٩٩

الترقيم الدولى: X - 287 - 208 -977





هذا هو العام السابع من عمر «مكتبة الأسرة» .. ومنذ سنوات طوال لم يلتف الناس حول مشروع ثقافى كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام. واستجبنا لهذا المطلب الجماهيرى العزيز إيمانًا منا بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها؛ فى إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبة الأسرة» .. أن تعيد الروح إلى الكتاب مصدرًا هامًا وخالدًا للثقافة فى زمن الإبهارات التكنولوچية المعاصرة.. وها نحن نحتفل ببدء العام السابع من عُمر هذه المكتبة التى أصدرت (١٧٠٠) عنوانًا فى أكثر من «٣٠ مليون نسخة» تحتضنها الأسرة المصرية فى عيونها وعقولها زادًا وتراثًا لايبلى من أجل حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك

مكتبة الأسرة 20..

مهرجان القراءة للجميع



١٥٠
قرش

